

محمد جابر الانصاري

**الخليج
ايران
العرب**

الخلفية التاريخية واحتمالات المستقبل
((وجهة نظر خليجية))

1972

الخليج • ايران • العرب
أ. د. محمد جابر الأنصاري

الطبعة الثانية
حقوق الطبع محفوظة



دارة الانصاري للفكر والثقافة
مملكة البحرين

مؤسسة الايام للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي

جميع الحقوق محفوظة ولايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو
تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن
مسبق من الناشر

رقم الناشر الدولي
9978-99958-3-193-9

رقم الايداع بإدارة المكتبات العامه :
577/د.ع 2020م

المؤلف

- ولد في البحرين سنة 1939 . وقد ارتبطت نشأته بالحياة البسيطة لبحارة الخليج وعماله من خلال عمل والده في البحر ثم في صناعة النفط .
- نال شهادة الماجستير "بامتياز" من الجامعة الاميركية في بيروت ، ويشرع الآن في التحضير لدرجة الدكتوراة فيها .
- على صعيد العمل الرسمي عمل مراقباً للإعلام في البحرين 1967-1969 ثم عين رئيساً للإعلام وعضواً في مجلس الدولة سنة 1970 . واستقال بعد ذلك ليتفرغ للبحث الاكاديمي والنشاط الادبي .
- عمل أيضاً في حقل التعليم العالي ، ونشر كتباً ومقالات فكرية وأدبية ودراسات تتعلق بأدب الخليج وثقافته وتاريخه . من كتبه المطبوعة ((احياء تراث البحرين الادبي)) و((لمحات من الخليج العربي)) ، وظهر له بحث بالانكليزية في مجلة اتحاد الكتاب الآسيويين - الافريقيين (لوتس ، العدد السادس) يتناول خصائص الادب العربي في البحرين .
- عمل مع عدد من ادباء البحرين الشباب على تأسيس ((أسرة الادباء والكتاب)) وهي تجمع طليعي لنخبة من المهتمين بالأدب والفكر التقدمي في البحرين ، وكان أول رئيس لها .
- متزوج وله بنتان : ((هالة)) و((ميساء)) .

اهداء

الى شباب العرب
في خليج العرب
أملأ في أن يصبح
اعدادهم للغد
قطعة من خبزهم اليومي

المحتويات

الفصل الأول :

- ايران : كسرى العائد يبحث عن شطرنج جديد

الفصل الثاني :

- هذا الخليج : خلفيته التاريخية - الحضارية

الفصل الثالث :

- هذا الخليج : بنيته الاجتماعية - الاقتصادية

الفصل الرابع :

- الخليج والعرب : والآن ما العمل؟

تقدمة

ان ما دفعني دفعاً الى تأليف هذا الكتيب ، هو ردود الفعل العربية العفوية ، والمتأخرة على أوانها ، والمشتتة دون خطة مدروسة واعية ، تجاه الاحتلال الايراني لجزر الخليج . فقد اثبت هذا الحدث اننا - كعرب لم نستفد حتى الآن من تجاربنا المريرة ، واننا ازاء قضية أخرى من قضايا القومية المصيرية لم نكن في مستوى الرد الحاسم ، ولا حتى في مستوى الفهم اللازم لما يحيط بنا من تحديات واطار .

واهم ما يجب التنبه اليه في هذا الشأن ، هوان الاحتلال الايراني للجزر الصغيرة في الخليج ليس نهاية الامر بل بدايته ، وان الخطر أكبر من ذلك وابعد واعم . وما هذا الحدث غير مظهر بسيط في مظاهره .

ذلك ما تهدف الى تبينه هذه الدراسة الموجزة ، وكل ما أرجوه أن يكون هذا الجهد ، الذي هو حصيلة معاناة مصير لقضية الخليج من قبل واحد من أبنائه ، خطوة متواضعة أولى نحو اهتمام عربي واع ، وتحرك عربي فعال في اتجاه أهم قضية عربية راهنة بعد قضية فلسطين وخطر التوسع الاسرائيلي ، بل في اتجاه الجبهة الخلفية لمعركتنا المصيرية مع العدو الصهيوني .

المؤلف

الفصل الاول

ايران: كسرى العائد يبحث عن شطرنج جديد
صراع الاضداد: سؤدد الفرس ودين العرب

لمن يراجع أية موسوعة عامة ، تبدو ايران مجرد دولة آسيوية متوسطة الحجم وذات دخل لا بأس به يحقق لها درجة طيبة من التقدم . الا ان ايران ((أعقد)) من ذلك بكثير! وقد قال مهيار الديلمي ، بعدما هجر دينه الفارسي القديم واعتنق الاسلام على يد الشرشيشف الرضشى ، و((دولة بني العباس)) ، عم النبي العربي ، في اوجها وفارس واحدة من ولاياتها العديدة :

قد ورثت المجد عن خير أب وقبست الدين عن خير نبي

فجمعت المجد من اطرافه سؤدد الفرس ودين العرب!

غير ان ((سؤدد الفرس)) و((دين العرب)) لم ينسجما ضمن معادلة فكرية - شعورية متوازنة في التركيب النفسي الايراني ، بل بقيا - كالنار والماء - قطبي تجاذب وتصارع لا بد أن يتغلب احدهما على الآخر في النهاية . . .

وهذا جانب واحد من جوانب العقدة الفارسية .

كانت فارس امبراطورية عظيمة في الماضي . قبل ظهور المسيح كانت احدى القوى الرئيسية في العالم القديم . وقبل ظهور محمد كانت احدى أكبر دولتين في الشرق . وقد غزت بلاد الاغريق . وغزت مصر . وحققت في ظل الاكاسرة انجازات حضارية لا تنكر . وفجأة - بقوة الحركة المحمدية الخلاقة - انطبقت موجة الفتح العربي من شبه الجزيرة فاذا بفارس الاكاسرة ولاية تابعة للمدينة ثم لدمشق ثم لبغداد . . . ((طهران مربوط خيلنا!)) . عبارة ردها المتظاهرون العرب المنفعلون في بعض المدن العربية الشرقية يوم احتلت ايران جزر الخليج . هؤلاء المتظاهرون العرب لا يُعول

عليهم ، ولا يحمل كلامهم محمل الجد . فقبل سنوات كانت باريس ولندن ((مربط خيلهم)) أيضاً . الآن تواضعوا وقبلوا طهران! هذا لا يهم لكن الحقيقة تبقى : أن إيران كلها كانت وظلت - لقرون عديدة - مسرحاً ومربطاً للخيل العربية! تقول نشرة اعلامية إيرانية حديثة : ((ان من مميزات الشخصية الإيرانية انها احتفظت بكل مقوماتها وخصائصها برغم الفتوحات الأجنبية التي قطعت استمرارية تاريخها القومي . وكانت الشخصية الإيرانية تبرز بعد كل محنة أقوى مما مضى)). هذا القول يحتاج الى تعديلات عدة ، في ما يتعلق بآثار الفتح العربي ، لانه يكشف عن ((عقدة العقد)) في التاريخ الإيراني . صحيح ان إيران تعرضت لغزوات أجنبية عديدة ، وان جميع الغزاة مروا بها مروراً سريعاً . . . عدا الفاتحين العرب الذين كان تأثيرهم بالنسبة الى التاريخ القومي الفارسي أكثر من مجرد ذكرى تاريخية غير مشوقة ! فقد اعتنقت إيران الاسلام ، وغدت حضارتها اسلامية في كثير من وجوهها والتحم تاريخها عضواً بالتاريخ العربي ، واصبحت المفردات العربية في اللغة الفارسية طوال العصر الوسيط لم تستطع التعبير عن ذاتها الا بلغة قريش! ابو جنيفة والشافعي في الفقه ، ابونواس وشار الديلمي في الشعر ، ابن سينا والغزالي في الفلسفة ، الجنيد ، البسطامي ، الحلاج في التصوف . وقد حاولت إيران أن تجعل من التشيع مذهبها القومي الخاص . والایرانيون المحدثون - رسمياً وشعبياً - يصرون على ذلك ، ويؤكدون عليه لكي يميزوا أنفسهم عن العرب . وعبثاً يحاولون!

فالتشيع - تاريخياً وفكرياً - حركة ثورية اجتماعية عربية

في منطلقها وأهدافها وشهادتها ، انطلقت لمقاومة استبداد بني أمية والفئات المستغلة المناصرة لهم . زائر عربي كان في طهران يوم عاشوراء . سأل سائق التاكسي الإيراني عن معنى المناسبة ، قال : انها مناسبة استشهاد الحسين . سأل الزائر العربي : ومن قتل الحسين؟ فكان الجواب : قتله العرب! ولما سأل الزائر : ومن هو الحسين؟ كان الجواب بتردد وبلا حماس : انه عربي أيضاً! المفهوم الإيراني للتشيع شيء يختلف تماماً عن التشيع العربي الاصيل . وهي حقيقة يشعر بها الشيعة العرب قبل غيرهم . هذا من حيث المذهب . وعلى الصعيد اللغوي جرت محاولة في عهد رضا شاه لكتابة اللغة الفارسية بالاحرف اللاتينية وبالعودة الى المفردات البهلوية القديمة . كانت المحاولة اسوأ من فاشلة . يروون على سبيل التندر ان لغويين إيرانيين متطرفين وضعوا قاموساً بالمفردات الإيرانية القديمة التي يجب أن تحل محل المفردات العربية . ثم بحثوا عن اسم لهذا القاموس ، وحاولوا جهدهم أن يكون هذا الاسم فارسيّاً صحيحاً . فجاء اسمه ((قاموس مصطلحات))! وهكذا يغدو الجهد الإيراني الحديث لاختفاء الآثار العربية الواضحة في الحياة الفارسية جهداً مصطنعاً يدفع الى سلوك غير طبيعي وتصرفات عصبية في كثير من الاحيان . وهذا جانب يجب أن يتنبه اليه كل من يحاول دراسة سلوك إيران الدولي في الوقت الحاضر ومواقفها من العرب خاصة . ان التاريخ الكسروي القديم أصيل في الحياة الفارسية ، لكن العهد العربي راسخ كذلك في حياتها . من هنا سر التناقض الذي لم تستطع إيران حله منذ قيام الدولة العضوية الإيرانية المستقلة عن الخلافة الإسلامية الى عهد الاحتفال الاسطوري الذي أقامه الشاه لذكرى كورش ، وأثار حفيظة المتدينين من الفرس أنفسهم!

الاتجاه غرباً : يابان الشرق الاوسط

من ناحية أخرى ، تندفع ايران الى اقتباس مظاهر الحياة الغربية في الفكر والاقتصاد والصناعة والعمران والازياء وسائر مظاهر الحياة الاجتماعية . الايرانيون يقولون انهم ((يابان)) الشرق الاوسط و((ألمان)) آسيا . والواقع ان لقولهم اساساً من الصحة . فقد حققت الصناعات الايرانية مستوى ممتازاً من الجودة . صحيح أن رؤوس الاموال الغربية تسري في شرايينها ، وصحيح ان الخبرة الغربية تمثل أدمغتها المحركة ، لكن خبراء الشؤون الايرانية يتفوقون على ان الايرانيين يستفيدون من كل ذلك بسرعة ، ويحولونه لمصلحة ايران الخاصة ، وان المؤسسات الاقتصادية الايرانية أخذت تقف على قدميها وتحقق لمنتجاتها جودة عالية ، وهو أمر لم يتحقق في بلدان ((شرق - اوسطية)) أخرى توافر لها المال والخبرة ، غربياً أوسوفياتياً! هذا الاندفاع الايراني في تقليد الغرب ، وهذه البراعة في اجادة التقليد يعودان الى سببين :

سبب سلبي ، وهو الرغبة الملحة في فسخ ماضي ايران الاسلامي - العربي . وسبب ايجابي ، هو العزم على اللحاق بركب الحياة الحديثة كأمم الشرق الأخرى . . .

غير ان السببين يتداخلان في الحياة الايرانية بشكل يصل الي درجة الارتباك ، ويجعل من الحياة الايرانية الحديثة مسرحاً غربياً لتقليد يصل الى درجة النسخ الببغائي . . . الايرانيون يقولون انه لا بأس من هذا التقليد في الوقت الحاضر حتى لو كان تقليداً أعمى .

ويقولون ان الشخصية الفارسية ستهضمه كما هضمت

((غيره)) من قبل . ويستدلون بجودة الصناعات الإيرانية وتقدم إيران الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي استطاعت سياسة الشاه أن تحققه في العشرين سنة الأخيرة بعد ما استقرت الأحوال السياسية في إيران .

الثورة : فوقية وبيضاء

ذلك يقودنا الى الحديث عن سياسة الشاه والوضع السياسي في إيران بصفة عامة :

القصة كلها تبدأ منذ قررت الولايات المتحدة اسقاط ((مصدق)) أول مؤتم للنفط في الشرق الاوسط ، والقضاء على حركة حزب ((توده)) الشيوعي ووقف النفوذ السوفياتي في إيران ، وخاصة ان الاتحاد السوفياتي يجثم على حدود إيران الشمالية بطولها . بل ان مناطق إيرانية تقع ضمن الحدود الروسية (وهذه المناطق - بالمناسبة - لا تضعها إيران في قائمة أراضيها ((السلبية)) مثل أبوموسى وطنب الصغرى والكبرى مع انها مناطق إيرانية تاريخيا وتتكلم اللغة الإيرانية ، فالدب الروسي لا يستسيغ المزح . مثلت إيران باستمرار حلقة هامة وحساسة في سلسلة الدفاع الغربي . وفي الخمسينات ، كان سقوط إيران في قبضة المعسكر الشرقي يعني فتح منطقة الشرق الاوسط كلها للنفوذ السوفياتي .

وقد تخلت روسيا عن حزب ((توده)) لان اصول ((لعبة الامم)) بينها وبين الولايات المتحدة جعلت إيران تدخل بصورة حاسمة جازمة في الدائرة الغربية ، بحيث أصبح سقوط إيران في

القبضة الروسية مرادفاً لحرب عالمية أولمواجهة خطيرة لا يمكن التنبؤ بعواقبها . غير أن احدى الحركات التي أصبح معترفاً بها في ((لعبة الامم)) - وهي حركة ((التعايش السلمي)) الخروشوفية - مكنت نظام الشاه والاتحاد السوفياتي من التصرف مع بعضهما كجيران طبيين ومتعاونين . فساهم الروس في حركة التصنيع الايرانية بقسط كبير ، بل وحصلت ايران منهم على وسائل نقل عسكرية لجيشها . . (وربما كانت القوارب العسكرية التي نقلت جنود ايران الى جزر الخليج من صنع سوفياتي؟!) . بعد انتهاء حركة مصدق ورجوع الشاه ، لعبت ((المشورة)) الامريكية دوراً هائلاً في التخطيط لمستقبل ايران . فواصلت الولايات المتحدة ((حراستها)) للنظام وأخذت تمده بالدعم الاقتصادي والخبرة التقنية حتى استطاع ان يظهر امام العالم كواحد من أكثر النظم التقليدية تقدمية ، بشكل لم يعد من المناسب مقارنته بهيلا سلاسي في أثيوبيا ، وظاهر شاه في أفغانستان ، وبحلفائه أصحاب الجلالة في دنيا العرب! فلقد حقق ((الثورة البيضاء)) بتوزيع الاراضي على الفلاحين الايرانيين واستأصل شأفه طبقة اقطاعية شرسة ، كما استطاع - بشكل فريد - ان يستخدم الجيش لاهداف التنمية ، بحيث استطاعت ((كتائب البناء)) التابعة للجيش الايراني ان تقوم بدور كبير في محو الامية ، والوعي الصحي ، والخدمات الاجتماعية الاخرى . . . والواقع ان ذلك ليس بالشيء اليسير في بلد من العالم الثالث حيث تندفع العساكر لاستلام الحكم والتصارع عليه واغراق البلاد في دوامة الانقلابات العسكرية . يساريا ، تبدو هذه الاصلاحات مجرد محاولات خداع من جانب نظام قطاعي لتثبيت نفسه . ايرانيا ، لا تبدو المسألة بمثل هذه البساطة ، بل انها تعكس تغيرات وتحولات

حقيقية في أرضية الواقع الاجتماعي - الاقتصادي الإيراني .
ولكن لابد من الاعتراف بأن هذه الإصلاحات لم تقم في جومن
التفتح الديمقراطي . على العكس . استطاع الشاه ان ينفذ سياسته
الإصلاحية في جومن السيطرة المطلقة تعيد الى الازهان طبيعة
الحكم الكسروي القديم .

أو((الديموسروية)) ، ونستميح علماء السياسة واللغة عذراً ،
لنحت هذه الكلمة بقصد التعبير عن معنى النظام الديمقراطي
حسب الاصول الفارسية الكسروية في الحكم . ما يزال المجتمع
الإيراني يقيم وزناً كبيراً لظاهرة التدرج الهرمي في التكوين
الاجتماعي ، هذا الهرم الذي يتصاعد طبقات بعضها فوق بعض
حسب حدود قطعية ثابتة حتى يصل في قمته الى الفرد المطلق ،
الواحد الاح ، بلا شريك أو حسيب أو قريب . وهذه الصورة - بلا
شك - أصيلة في المجتمعات الشرقية العريقة ، وما تزال تلوح
حتى اليوم في أنظمة سياسية شرقية كثيرة برغم ما طرأ عليها من
تغييرات وتطورات . ألا يقف ((ماو)) الى الآن على السلطة منفرداً
برغم الطابع الشعبي الثوري لنظامه؟ غير ان المقارنة الحصرية غير
واردة في هذا المجال ، بطبيعة الحال . في ايران ، مع النمو الاقتصادي
الاجتماعي حدث ((ضمور)) سياسي ، ان صح التعبير . أصبحت
((السياسة)) بعبعاً يثير الذعر من بعيد ، الى درجة ان الحديث في
السياسة في الاوساط الاجتماعية الإيرانية غدا من المحرمات الرهيبة
التي تشل كل حوار ، وتسد باب كل موضوع له علاقة بالسياسة من
قريب أو بعيد . وكثرت الكنايات والاشارات ((الباطنية)) البعيدة
في القصص والاقلام ، وأخذ الإيرانيون يتناولون أمور السياسة على

طريقة الرمز كما فعل أجدادهم في حكايات كليله ودمنة! مفكرون ومثقفون إيرانيون كثيرون فضلوا العيش في باريس وبون . بعضهم اضطر على الصمت والاختفاء . البعض الآخر تعرض للمطاردة والتنكيل والتصفية . يروى ، في ما يروى ، ان قاصا ايرانيا كان متخصصا في كتابة حكايات الاطفال (مثل كامل كيلاني عندنا في العربية) اشتبهوا فيه بأنه يضمن حكاياته للأطفال الإيرانيين رموزا سياسية . هذا الكاتب وجدت جثته طافية ذات صباح على صفحة نهر رقرق بين الجنائن الفارسية المعلقة في مشهد يذكرنا بضحايا البوسفور في الاستانة أيام السلطان عبد الحميد . ولكن من يجادل من هذا المنطلق؟ ومن يتعلل بهذا المنطق؟ يقول أنصار سياسة الشاه الاصلاحية : ((من كان منكم بلا خطيئة (فليرجمنا) بحجر))! هل ((التقدميون والثوريون واليساريون)) أكثر تسامحا من خصومهم مع خصومهم؟ هذا الجدل لا يهمنا . ما تهمنا هي صورة الواقع . ايران تتقدم اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، وتنمو عسكريا ، وتبرز دوليا في ظل سياسة شاهانية مطلقة تستخدم الدستور والحزاب والانتخابات والبرلمان والمعارضة لإتمام ((شكليات)) الدولة الحديثة لا أكثر ولا أقل . بعض الاصلاحيين في ايران يقولون ان الشاه هو ((المستبد العادل)) الذي بشر به السيد جمال الدين الافغاني لاصلاح الشرق والنهوض به ، على ما بين الاستبداد والعدل من تناقض! أياً كان الامر ، يظل الحكم في صميمه كسروياً مطلقاً ، كما فهمه عبدالله بن عمر بن الخطاب عندما قارن بينه وبين الكسروي الجديد الذي أقامه ((ابن هند)) على الارض العربية بفرض الملك الاموي . الا انه من الضروري التنبيه الى ان الاغلبية الساحقة من الإيرانيين يجمعون على تأييد

التطلعات الخارجية والاهداف التوسعية لهذا الحكم وان اختلفوا في مواقفهم تجاه سياساته الداخلية .

الحوافز والدور التاريخي

من هنا أهمية وخطورة سياسة ايران الخارجية ، خاصة تجاه العالم العربي ، والخليج بالذات . فايران دولة تجعلها عوامل عديدة لا تقنع بأن تقبّع داخل حدودها . هناك حوافز تجعلها تبحث عن توسع ، عن مكاسب ، عن انتصارات مادية أو معنوية .

هناك الحافز القومي الشعوري التاريخي المتصل بلامّجاد الكسروية الايرانية الغابرة . وفي ايران اليوم حزب معترف به

يطلق على نفسه اسم ((خاك وخون)) - اي الارض والدم - يذكرنا بالحزب الفاشستي الايطالي ، ويعتبر أولى اهدافه اعادة الامبراطورية الفارسية كما كانت ايام انوشروان ، أي أن تضم ايران مساحات شاسعة من العراق (المدائن القديمة وبابل) والخليج بأكمله ، بالاضافة الى أجزاء من شرق جزيرة العرب . هذا الحزب كان من التطرف بحيث صوت نوابه القلائل في البرلمان ضد قرار الشاه نفسه بحل خلافه مع البحرين ، برغم ما يعرف عن نواب الاحزاب الايرانية جميعاً مع ((انضباط)) تجاه مسائل السياسة العليا! وهناك أيضاً الحافز السياسي - العسكري للشاه ، لتوطيد نظامه داخلياً ، بالتوسع في الخارج ، وخاصة ان نظامه بحكم تركيبه لا يسمح بانفتاح ديمقراطي في ميدان السياسة الداخلية . وهناك كذلك الحافز الاقتصادي - التجاري ، بحثاً عن أسواق جديدة

للصناعات الايرانية الناشئة التي تتعرض لمنافسة شديدة من قبل الصناعات اليابانية والصينية ، فضلاً عن منافسة الصناعات الغربية . كل هذه الحوافز لا بد من ان تخلق ((شهوة)) للتوسع ، ليس ضرورة بالفتح العسكري المباشر ، وانما بفرض النفوذ - بصورة أوبأخرى - والقيام بـ ((دور تاريخي)) معين يستثير الهمم الايرانية ويلهب المشاعر الكسروية . ونحن العرب أصحاب ((الرسالة الخالدة)) حسب تعبير البعث ، قد نفهم معنى ذلك أكثر من غيرنا! ومنذ 1952 تصور الرئيس عبد الناصر ، ان هناك دوراً يبحث عن بطل ، وان هذا الدور قد استقر في مصر ، وان هناك دوائر ثلاثاً تنتظر من يملأها حيوية . وقد لا تحلم ايران الحديثة بأن تلعب دوراً في مثل هذا الاتساع الذي طمحت اليه مصر الناصرية ، غير أن لها ((حلمها)) كذلك . وربما كلما كان الحلم صغيراً ومحدوداً ، كانت قابليته للتحقق أسهل وأضمن . ويبدوأن الشاه يتحرك دولياً وفي ذهنه ((دوائر)) ثلاث كذلك :

- الدائرة العالمية .

- الدائرة الاسلامية الآسيوية الشرقية .

- الدائرة الخليجية .

ربما كان الشاه يفكر في الدائرة العالمية عندما دعا جميع اقطاب العالم الى حضور احتفالاته بمرور 2500 سنة على تأسيس الامبراطورية . ولعل هذا الحدث لم يتجاوز في تأثيره الفعلي الجانب الاحتفالي . غير ان أهم ما يلاحظ في هذا المجال ، ان لايران علاقات طيبة مع جميع دول العالم تقريباً . وقد اتبع الشاه سياسة

مرسومة ذكية في هذا الصدد ، فلم يخلق عداوات أو حساسيات مع اي دولة أو معسكر عالمي أو تجمع اقليمي . (اللهم الا التجمع العربي الذي ستأتي الى النظر في علاقاته بعد حين) . فالشاه حليف وثيق الصلة بالباكستان ، لكنه على صلة طيبة جداً بنيودلهي . وهو تابع للولايات المتحدة في الحقيقة ، غير ان علاقته بالاتحاد السوفياتي أكثر من طيبة . وعن طريق موسكو اقام الشاه علاقات مثمرة مع أوروبا الشرقية . وهو - في الوقت ذاته - على صلة حسنة بالصين ، وتعتبر زيارة شقيقته لبكين قبل مدة وجيزة من الخطوات الاولى في التمهيد لاتصال الصين بالولايات المتحدة عن طريق وسطاء شرقيين . وقد وصفه شوآن لاي في معرض حديثه عن ((الثورة البيضاء)) بأنه - أي صاحب الجلالة الشاهانية - ((قائد الجماهير المسحوقة في ايران))! من ناحية أخرى نرى الشاه العلاقات التقليدية بين طهران وباريس ، وهي علاقات ذات طابع ثقافي حضاري ترجع الى عهود بعيدة وتعكس اعجاب الذوق الفارسي بأشياء الجمال والفن الفرنسية .

واذا غرضنا الطرف عن مبارزاته الكلامية مع بريطانيا حول ((استعمارها)) في الخليج ، فإن علاقته بلندن قد تكون أفضل من علاقات أية عاصمة عربية موالية للغرب بها . والطريقة التي تم بها احتلال الجزر ، تدل على درجة ((السلاسة في ترتيب الامور)) بين 10 داونغ ستريت وعرش الطاووس الامبراطوري! على الصعيد الآسيوي الاسلامي الشرقي ، تنطلق ايران من كونها دولة اسلامية ذات ثقافة وحضارة . ومن الجدير بالذكر ان الباكستان متأثرة فكرياً وأدبياً وفنياً ولغويًا بالثقافة الفارسية ، كما

ان افغانستان تعرضت لشيء من هذا التأثير . وفي الغرب شقت الثقافة الايرانية طريقها الى اسطنبول ولا تزال اللغة التركية تحمل مفردات فارسية أكثر من أن تحصى . كما أن للفكر الفارسي أثره العميق في تركيا برغم اتجاه الاخير نحو الغرب بعد حركتها الكمالية العلمانية . وفي الميدان الاسلامي تحرص ايران على ابراز ذاتها كدولة شيعية . وهي تتصرف في هذا المضمار باعتبارها ((الموطن الشيعي)) و((الممثل العالي للشيعه)) ، وان كان نجاحها في ذلك موضع تساؤل . من ناحية أخرى تقفز ايران من عهدتها الاسلامي ، لتعود الى ماضيها الغابر فتعمل على بعث الامجاد ((الآرية)) بصفتها ((الموئل الاول للجنس الآري)) . ومن ألقاب الشاه ((آريامهر)) - أي شمس الآريين . . . أما سياسيا وعسكريا ، فان ايران تمثل حلقة الوصل الهامة في حلف المعاهدة المركزية بين باكستان وتركيا . وهي تظهر اهتمامها في الآونة الأخيرة بمنطقة المحيط الهندي - بعد الخليج - باعتباره الوسيط المائي الذي يمر منه النفط الايراني الى منطقة الشرق الاقصى . في مجلة ((ذي نيوميدل ايست)) اليهودية التي تصدر في لندن (عدد يونيو 1971) ظهر تقرير من مراسل المجلة الايراني في طهران - والاطراف الصهيونية كما هو معروف لها حرية واسعة في العمل والاتصال هناك - مؤداه ان ايران تفكر في انزال اسطول خاص بها في المحيط الهندي يساهم مع اساطيل الدول المعينة في المنطقة ، في حفظ الامن وتأمين مرور النفط الايراني عبرها الى الشرق الاقصى . وبغض النظر عن الفعالية التي يمكن الاسطول الايراني ان يقوم بها هناك ، فان تفكير ايران الآسيوي هذا ، يقودنا مباشرة الى موضوع سياستها الخليجية ، وبالتالي العربية . فالخليج -

بالإضافة الى كونه منطقة ((فراغ)) مجزأة وغنية بحد ذاته ، يمثل - في الوقت نفسه - معبراً إيرانيا الى المحيط الهندي وبحار العالم كلها . وسيظل الخليج باستمرار العامل الاساسي في تكييف العلاقات العربية - الايرانية . ففي هذه المنطقة بالذات سيتبين ان كانت الامتان ((الشقيقتان اللدودتان)) بلأمس ، ستعيشان اليوم في تفاهم أم لا؟ طبعاً ثمة عوامل أخرى متشابكة متناقضة تدخل في عملية تكييف العلاقات العربية - الايرانية غير موضوع الخليج ، لكنها جميعا ستكون ثانوية قياسا بما سيجري في منطقة الصدم الفعلي .

عوامل لكنها غير حاسمة!

هناك عوامل الاخوة الدينية . والايرانيون العاديون ذوو الشعور الاسلامي الصافي يكونون المودة للعرب . وبعد كل شيء ، أليس نبينهم عربيا ؟ وقرآنهم عربيا ؟ ودينهم عربيا ؟ وائمتهم عربا ؟ (وان خالطهم الدم الفارسي من جهة الامهات حسب التصور الفارسي) .

الذين كانوا في طهران أثناء احداث حزيران شاهدوا بروز مشاعر الوفاء الايرانية الصافية تجاه العرب .

غير ان النخبة الايرانية المتعلمة في المجالات السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية افتقدت هذا الشعور العفوي تجاه العرب بحكم وعيها الذاتي بقوميتها الفارسية وتاريخها الكسروي ، فتحول الود الى عداء دفين لاولئك القوم الذين حطموا الامبراطورية وحكموا فارس قرونا

طويلة وتركوا فيها آثار بصماتهم واضحة جلية لا تمحى في كل مجال . هذا الشعور لدى النخبة الايرانية ليس جديداً بالطبع ، وليس من معطيات العصر الحديث . في القديم ، كان مثقفو الفرس أول من أذكى نار الشعبوية ضد العرب . وحتى من كتب منهم بالعربية ، واتخذها لغة أمال له ، لم يستطع اخفاء شعوبيته . وقد ساهم الفرس في تحطيم الملك الاموي وفي القضاء قضاء مبرما على الطابع العربي للدولة العباسية بعد ذلك . وعليه ، فأن السلوك الايراني السياسي المعاصر تجاه العرب ، سيكون متأثراً بقطبي التجاذب : الود الشعبي العفوي ، والعداء الشعبي الدفين الذي غدى باستمرار سياسيا وثقافيا . وأخشى ما نخشاه ان يتغلب قطب العداء على قطب الود بحكم تأثير النخبة المتعلمة ، وبتأثير عنصر المصلحة الشوفينية الغالبة على التفكير القومي الايراني الذي من الممكن ان يحول هذا الشعور الى عامل هجومي موجه . عامل آخر ترك آثاره على العلاقات العربية الايرانية : هو عامل العلاقة السلبية بين حركة الثورة العربية الناصرية والوجود التقليدي الايراني . وقد وصل هذا التصادم الى ذروته في العداء الشخصي بين عبد الناصر والشاه في الستينات . هذا العداء خفت حدته كثيرا بعد حزيران ، وبسبب السياسة الجديدة لمصر تجاه ايران . غير انه لا يمكن القول ان هذه العلاقة وصلت الى نهايتها السعيدة ، فأى تحرك ثوري جديد في الساحة العربية ، سيجعل ايران تعود الى مواقعها السابقة . ويجب ألا يغيب عن أذهاننا ان ايران في فترة توتر علاقاتها مع مصر الثورة الناصرية قد أقدمت على عدد من

الاعمال الهجومية في قلب الساحة العربية كدعم العناصر العربية المتحدة ، وكتحريض ومساندة العناصر الكردية ضد الثورة العراقية ، وكاقامة علاقات فعلية مع اسرائيل ، وكدعم الامامين في اليمن بالسلاح الخ . من ناحية أخرى ، تقوم علاقات ودية بين ايران والانظمة الملكية العربية ، ويقوم ما يشبه الدعم المتبادل . غير ان هذه العلاقات تحكمها في النهاية مواقف الانظمة العربية من المطامح الايرانية في الخليج والدول العربية المجاورة . ان اي نظام عربي مصادق لايران يقرر الوقوف - لسبب أولاً آخر - موقفا عربيا محددا من المطامح الايرانية ، سيجد نفسه فجأة وقد خسر كل رصيده الطيب لديها بين عشية وضحاها . كمثال على ذلك ، ظلت علاقات الكويت بايران ممتازة منذ الاستقلال ، غير ان هذه العلاقات تدهورت بشكل ملحوظ عندما حاولت الكويت بالاشتراك مع العراق تنظيم حملة عربية لمواجهة خطة ايران احتلال جزر الخليج ، مما حدا بأجهزة الإعلام الايرانية الى محاولة التشكيك في الكيان الكويتي ذاته ، الامر الذي اضطر الكويت الى وقف حملتها نظراً الى شراسة الموقف الايراني من ناحية (والى تجاهل الحكومات العربية المتعمد لهذه القضية من ناحية أخرى) . لذلك ، فأن الصداقة بين ايران والانظمة التقليدية العربية ستظل ((سارية المفعول)) طالما ان الامر يتعلق بلجم التيارات الثورية في المنطقة . اما عندما يتعلق الامر بالاهداف الحيوية للسياسة الايرانية في المنطقة العربية ، فأن هذه الصداقة ستصبح غير ذات موضوع ... على الأرجح!

الخليج مجالها الحيوي

غير ان جميع هذه العوامل ، ستكون عوامل ثانوية الى جانب عامل الصراع في الخليج حيث المواجهة الفعلية المستمرة . والخليج في الاستراتيجية الايرانية هو ((المجال الحيوي)) المثالي لممارسة طموحاتها القومية والمصلحية .

فايران - بكل حوافز التوسع لديها - لا تستطيع ان تتوسع غرباً على حساب جارتها القوية ، ولا ان تمتد شرقا على حساب حليفها الاسلامية الاخرى باكستان كما انها لا تستطيع ان تحمل الرايات الكسروية لتعبر بها حدود ((اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية)) في الشمال ، وتسترجع الاراضي السليبية . أما في الجنوب حيث ((اتحاد الامارات العربية)) وتوابعه وملحقاته ، فأن الامر مختلف بصورة كلية! في منطقة الخليج يبدوالباب مفتوحا على مصراعيه للاحتلال ، أو فرض النفوذ بممارسة الضغط لتحقيق مختلف انواع المكاسب ، طوعا أو كرها . ان الخليج بوضعه الراهن يمثل منطقة ((فراغ)) و((جذب)) للقوى المجاورة . واذا تصورنا مدى ((الامتلاء)) أو((الانفتاح)) الايراني شعوريا وسياسيا وسكانيا واقتصاديا وعسكريا ، وتصورنا مدى الفراغ الحاصل في منطقة الخليج ، امكننا ان نرى الى اي مدى وجدت ايران في هذه المنطقة ضالتها المنشودة : فالخليج على صغره مجزا ، وكثافته السكانية ضئيلة ، وثرواته هائلة ، وامكاناته الذاتية الدفاعية معدومة ، وحمائته العربية غير ممكنة في الظروف السائدة . ان كل ذلك يجعل من الخليج في نظر الاستراتيجية الايرانية ((مجالا

حيوياً)) لتحقيق ما تصبوا اليه من استعلاء قومي ، ومجد سياسي ،
وتوسع اقتصادي ، وامتداد بشري للامبراطورية الفارسية الجديدة!
وهكذا يعود كسرى ليجد في الخليج رقعة لشطرنجه . . . وليجد
الاحجار على هذه الرقعة مبعثرة . . مغرية!

الفصل الثاني

هذا الخليج؛ خلفيته التاريخية - الحضارية
يشمل ((حوض الخليج)) جغرافياً وبشرياً
المناطق الآتية على الجانبين
العربي والایراني

أولاً: منطقة شرق الجزيرة العربية:

هذه المنطقة التي تطل على الخليج ابتداء من الكويت في الشمال ، ومروراً بالاحساء والقطيف والبحرين في الوسط ، وانتهاء بشبه جزيرة قطر في الجنوب ، كانت تعرف في العهود الجاهلية والاسلامية بـ ((اقليم البحرين)). وكان هذا الاقليم يعد من الاقاليم الطبيعية الرئيسية في شبه جزيرة العرب مثل اقليم الحجاز ، واليمن ، وعمان ، ونجد . والواقع ان الخليج مدين لهذه المنطقة بالذات في عطائه الحضاري القديم والجديد ، وفي خصائصه السياسية والاجتماعية والفكرية . قبل العهد العربي عرفت المنطقة باسم ((دلمون)). وهذا الاسم رمز لحضارة ((شرق - أوسطية)) عريقة كانت تعاصر الفراعنة في مصر ، والفينيقيين في لبنان ، والسومريين ثم البابليين في العراق ، وحضارة السند في غرب القارة الهندية . وقد لعبت ((دلمون)) - التي أخذ علماء الآثار يكشفون عن منجزاتها الحضارية في العشرين سنة الاخيرة - دور الوسيط - المشارك بين السند وبابل . وكان لها عطاؤها الخاص في مجالات الافكار الدينية والمعاملات التجارية والفنون البحرية والتنظيم الزراعي . وكانت جزيرة أوال - دولة البحرين حالياً - هي المركز الديني والثقافي والتجاري لهذه الحضارة كما أثبتت الكشوف الاثرية الاخيرة . وقد استمر تقليد الانفتاح الحضاري في هذه البقعة خلال العصر الجاهلي حتى ان مبعوث النبي الى ملك البحرين ((المنذر بن ساوى)) ، وهو العلاء الحضرمي وجد في المنطقة مذاهب مسيحية ويهوديووزرادشتية وهندوكية كانت تتعايش وتتفاعل مع العقائد العربية القديمة

السابقة للإسلام . ومن هذه المنطقة بالذات عبرت جيوش الفتح العربي بحرا الى فارس وأكملت عملية الفتح التي قامت بها جيوش سعد ابن ابي وقاص عبر العراق . وقد ظلت المنطقة ولاية في دول الخلافة الاسلامية من العهد الراشدي الاول الى العهد العثماني . وبسبب بعدها عن مراكز الخلافة كانت تنفصل في دويلات مستقلة كلما ضعفت السلطة المركزية ، كما كانت تتعرض للنفوذ الفارسي بشكل مباشر او غير مباشر عندما تضعف القوة العربية في الجزيرة او العراق أو عمان . ومن أبرز أحداث هذه المنطقة في العصور الاسلامية قيام الدولة القرمطية فيها . وهي حركة اجتماعية ذات طابع اشتراكي ، ويعدها البحاثة والدارسون من أهم الحركات المنادية والعاملة من أجل العدالة الاجتماعية في التاريخ العربي ، بل التاريخ الانساني كله . وهذه المنطقة هي أول بقعة عربية تتعرض للاحتكاك مع الغرب . فقد غزاها البرتغاليون قبل أن يقود نابوليون الحملة الفرنسية الى مصر بحوالي قرنين ونصف . وأدى احتكاكها بالبرتغاليين الى نشوء حركة ((احياء وتجديد)) فيها . غير أن هذه الحركة لم يتوافر لها باحثون لاجلائها وتبيان جوانبها الحضارية . والمرجوان تؤدي الجهود المبذولة الان في جامعتي الكويت والبصرة لدراسة تاريخ الخليج ، الى تحقيق هذا الهدف العلمي . من ناحية أخرى ، نلاحظ تاريخا ان حركة اقامة الدولة الصفوية في ايران مدينة في ازدهارها الثقافي لعلماء هذه المنطقة ، اذ يعود لهم الفضل في نشر علوم الفقه والكلام والادب في المعاهد الايرانية التي أنشأها الصفويون لنشر المذهب الشيعي في ايران . فمن القطيف والبحرين (اوال) رحل كبار علماء الفقه الجعفري الى شيراز واصفهان وطهران ومشهد فنشروا العلم

وأحيوا الشعائر، وشجعوا حركة التفاعل بين الثقافتين العربية والفارسية. ويعود لهم الفضل - مع زملائهم من علماء النجف وعلماء جبل عامل في لبنان - في تعليم الإيرانيين أصول الفقه الجعفري. وتقوم هذه الظاهرة التاريخية دليلاً على أن إيران حتى في تشيعها مدينة للعرب!

وفي المكتبات الأهلية القديمة في طهران والبصرة وبغداد والبحرين والقطيف مئات المخطوطات العلمية التي ألفها علماء هذه المنطقة في تلك الفترة وتناولوا فيها مختلف المسائل الفقهية والكلامية والفلسفية والعلمية. وهذه المخطوطات هي الأخرى تنتظر الباحثين من أبناء المنطقة وغيرهم من الدارسين لحياتها ووضعها في الإطار العام لتاريخ الحركات الثقافية في الخليج. هذه البقعة من شرق الجزيرة التي هي بمثابة العقل والقلب في جسم الخليج العربي تعرضت للتجزئة - كغيرها من بقاع الوطن العربي - خلال القرنين الماضيين. وقد جرت عدة محاولات في الماضي لتوحيدها غير أنها منيت بالانحفاق حيث تصافرت النزعات القبلية الفردية وسياسة التفرقة البريطانية لتقيم بينها الحدود المادية والنفسية، ورغم أن شعبها عاش في شعوره ووشائج قرباه وحياته الاجتماعية وتقاليده وملاحم حياته البحرية شعباً واحداً. وقد تطور الوضع السياسي في هذه المنطقة على النحو الآتي:

1. في الثلاثينات فتح الملك عبدالعزيز بن سعود الأحساء والقطيف وجعلهما المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية. وبرغم انضمامها إلى المملكة، فإن المنطقة الشرقية ظلت تتفاعل ثقافياً واجتماعياً وتجارياً مع البحرين والكويت

وقطر فترة طويلة من الزمن حتى اواخر الخمسينات عندما قوي الاتصال بين أجزاء المملكة وتوثقت الصلات بين مناطقها ، فأخذت المنطقة الشرقية تبعد شيئاً فشيئاً عن نطاقها الخليجي لتدخل الاطار السعودي .

2 . استقلت الكويت في مطلع الستينات بعد فترة قرن من الحماية البريطانية .

3 . مع الانسحاب البريطاني من الخليج وانتهاء الحماية البريطانية مؤخرًا ، قامت كل من دولة البحرين ودولة قطر .

ثانياً - ساحل فارس الجنوبي :

وهو يوازي على الطرف الآخر من الخليج الساحل الشرقي للجزيرة العربية ، ويمتد بين ثغري بندر عباس وبوشهر . وعبر هذا الساحل تدخل ايران الدنيا الخليجية . وتقطن هذا الساحل عناصر سكانية تتحدث مزيجاً من الفارسية والعربية ، ويدين معظم سكانه بمذهب السنة الشافعية . والاصول البعيدة لهذه العناصر السكانية أصول عربية ، حيث هاجرت القبائل من عمان وشرق الجزيرة الى الساحل الايراني خلال اشتداد الضغط العثماني وانتشار الحروب الوهابية ، أوفي حالات التوسع السياسي العربي - كما حدث اثناء ازدهار مجد الدولة العثمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أوخلال اتساع دولة القواسم التي حكمت أجزاء من الساحل الايراني وتركت فيه آثارها واضحة .

ويحدثنا الرحالة نيبور في مذكراته انه شاهد عشائر عربية تعيش عيشة عربية كاملة في تقاليدها ولغتها ونظمها الاجتماعية عندما زار ساحل فارس الجنوبي قبل مئات السنين . وتعرف هذه العناصر في الخليج باسم ((الهولة)) ، والاسم تحريف للكلمة العربية ((الحولة)) ، أي من تحولوا او طعنوا من جزيرة العرب الى ايران . هذه العناصر السكانية نظرا الى ظروفها التاريخية في منطقة اللقاء والصدام بين العرب والفارس واجهت وضعاً يشبه ((الا انتماء)) من بعض الوجوه . فالإيرانيون ينظرون اليها من الشمال وكأنها عناصر غريبة بسبب أصلها العربي ومذهبها السني ، وعشائر الخليج والجزيرة العربية تنظر اليها - انطلاقاً من النظرة البدوية التقليدية - بأنها أقل قدراً منها ، نظرا الى تحولها من الحياة العشائرية الى الحياة البحرية والزراعية ، وبسبب اقتباسها لبعض مظاهر الحياة الفارسية ، وبقيائها في فارس مدة طويلة ، حتى ان قسماً منها نسي لغته العربية وأخذ يتحدث لهجة فارسية خاصة به .

غير ان هذا الوضع من ((الا انتماء)) خلق لدى ((هولة)) الخليج حافزاً لاثبات الذات والوجود ، فاتصفوا بالجد والذكاء والمرونة وامتزج في شخصيتهم افضل ما في الحياتين العربية والفارسية . وعندما اكتشف النفط في الاجزاء العربية من الخليج اخذوا يعودون الى سواحلهم العربية التي رحل أجدادهم منها ذات يوم حفاظاً على الذات او طلباً للمغامرة والكشف . وقد تحملوا في السنوات الاولى من عودتهم مرارة الاغتراب المتجدد وقبلوا العيش مع اخوتهم الاصليين كوافدين حذرين مسالمين ، لكنهم سرعان ما تكيفوا واندمجوا في مجتمعاتهم الجديدة - القديمة ، واصبح

الكثيرون منهم نخبة قيادية في مجالات التجارة والثقافة والخدمة العامة . بينما تسلم الجيل الثاني منهم قيادة الرأي العام الوطني وأصبح يمثل قطاعا هاما من ((انتلجنسيا)) المنطقة وقواها العربية التقدمية ، بل انهم غدوا ، بحكم جذورهم وعقليتهم وتجربتهم ، أكثر حماساً للعروبة بمعناها الحديث من بعض العشائر العربية ذاتها التي لا تزال تعيش - ذهنيا - في اسار تقاليدھا البدوية ولم تنصهر تماما في اطار المجتمع الحديث . من هنا يتضح ان عرب ((الهولة)) يجب الا نضعهم في عداد حركة ((الهجرة)) الايرانية الى الخليج ، فهم في الواقع يمثلون عنصرا عربيا تقدما متحضرا في البنية الاجتماعية - السياسية الخليجية ، خاصة في مجتمعات كالكويت والبحرين وقطر والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية . ولكن لا بد من الملاحظة في هذا الصدد ، ان عودة عرب ((الهولة)) الى مواطنهم الاصلية في الجانب العربي من الخليج قد تمت - كظاهرة - في النصف الاول من هذا القرن ، وهي لم تعد مستمرة ، والذين بقوا منهم في ايران خضعوا للتعليم الايراني الرسمي واندمجوا في المجتمع الفارسي ، وان كانوا لا يزالون ((أقلية)) لا تتمتع بكل حقوق المواطنة .والخليج اليوم ، لم يعد يتقبل بحكم تطوره وعلاقاته مع ايران أي مهاجرين جدد من الجانب الايراني . لذلك فأب الهجرة الى الخليج من الساحل الايراني يجب أن يغلق تماما بغض النظر عما اذا كان القادمون من الايرانيين الاصيلين او من ((الهولة)) .

ثالثا - منطقة شط العرب وجنوب العراق :

هذه المنطقة العراقية هي الوحيدة بين مناطق الخليج العربي التي تقوم بينها وبين ايران حدود برية . وتسكن هذه المنطقة عناصر فلاحية عراقية وعشائر عربية ، ومهاجرون عرب من منطقة عربستان المجاورة التي قضت ايران على كيانها العربي في عشرينات هذا القرن والحققتها بها عنوة .

كما ان هذه المنطقة بسبب التصاقها بالحدود الايرانية تتعرض لقدوم متسللين ايرانيين باستمرار ، وتقوم السلطات العراقية بين وقت وآخر بترحيلهم الى ايران . غير ان عددا من هؤلاء المتسللين يستخدم هذه المنطقة كمعبر للهرب والتسلل الى الكويت ورغم اجراءات الهجرة الكويتية المتشددة ضدهم . وقد هاجر عدد من سكان هذه المنطقة من العرب العراقيين الى الكويت في الاربعينات والخمسينات ، وخاصة عرب الزبير ، واندمجوا اندماجا تاما في المجتمع الكويتي . غير ان هجرة عرب العراق الجنوبي الى مناطق الخليج الاخرى التي تحتاج الى ايد عاملة وقوى بشرية ، محدودة جدا نظرا الى حاجة العراق ذاته الى القوة العاملة ، وبسبب القيود التي فرضها الانكليز على هجرة العرب جميعا الى بلدان الخليج طوال المئة والخمسين سنة الماضية ، بينما كان باب الهجرة مفتوحا للهنود والايرانيين والبلوش وجميع العناصر غير العربية ، على مصراعيه . وفي ما يختص بعلاقة العراق بالخليج من الممكن التساؤل الى اي مدى يعتبر العراق بلدا خليجيا؟ أي ، الى اي مدى يضع العراق ((قضية الخليج)) في سلم أولوياته السياسية؟

قد لا يكون العراق بلدا خليجيا كالكويت والبحرين وساحل

عمان . وقد تشغله اولويات أخرى كالمسائل العربية وفلسطين وشؤونه الداخلية (والعراق يفوق في مساحته مساحة حوض الخليج كله) ، غير ان العراق - مع ذلك - سيظل معنيا بالخليج الى حد كبير . فالخليج يمثل حدود العراق الجنوبية ، ويمثل طريقه البحري الى العالم ويمكنه ان يكون مجالا لنشاطه الاقتصادي وسوقا لمنتجاته حتى في الظروف السياسية الراهنة . ومن الناحية الفكرية - السياسية يمكن التيارات العراقية ان تؤثر في المنطقة ، غير ان هذه الناحية - من جانب آخر - من الممكن أن تضعف مركز العراق تجاه الانظمة الرسمية في الخليج وتخلق آراءه حالة من الحذر والحساسية . لكن الاله من هذا كله ان ايران تمثل قدرا مشتركا للخليج والعراق معا . فهي تواجه الاثنين في خط مواجهة واحد متواصل من كردستان في أقصى الشمال الى مضيق هرمز على الشاطئ العمانى في أقصى الجنوب . وهي تعمل دوما على اثاره القضية الكردية كلما ساهم العراق مساهمة فعلية في قضايا الخليج . كما أن موقفها من موضوع شط العرب معروف : لقد سحبت اعترافها باتفاق شط العرب بين البلدين ، واعتبرت حدودها في منتصف الشط تماما ، واخذت سفنها تدخل في ظل حراسة مسلحة . وهذا الوضع اصبح امرا واقعا نتيجة لانشغال العراق بأموره الداخلية وبالقضية العربية - الفلسطينية ، برغم انه لم يعترف بهذا الواقع . وهذه القضية من الممكن ان تثار مجددا في أية ظروف معقدة في المستقبل . وكاد الامر في الماضي ان يصل الى حد الاشتباك المسلح بين الجانبين ، واذا كانت طائرات الفانتوم الايرانية (التي يشرف على صيانتها خبراء اميركان نخشى ان يكون بعضهم من اليهود!) ذات المدى البعيد تستطيع أن تغطي السماء العراقية ، فإن نيران المدفعية العراقية تستطيع الوصول الى المراكز الحساسة في عصب صناعة النفط

الایرانیة . لكن ایران تظل متفوقة عسكريا على اي بلد عربي منفردا ، خاصة في ظل ظروف التجزئة العربية الحالية وظروف أزمة الشرق الاوسط والوجود الاسرائيلي . وهذا ما اضطر العراق الى السكوت مؤقتا عن قضية الشط .

من ناحية أخرى ، ستحاول ایران ، كلما ابدى العراق اهتماما فعليا بالخليج ، اثارة الشعور الطائفي بين ابنائه وارسال متسللين لاحداث شغب داخلي . غير ان ذلك غير ممكن ان يمر على وعي العرب وأخبرهم بالنيات الإيرانية ، منذ ايام المد الشعبي الاول .

رابعا - البلاد العمانية :

لعب ((القطر العماني)) دورا رئيسيا في تاريخ الخليج خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر عندما كان امبراطورية - في ظل حكم ((البوسعيد)) و((اليعاربة)) - لها ممتلكاتها في شرق افريقيا وسواحل ایران واجزاء عديدة من الخليج . وكانت القوى الاوربية المتنافسة ، من البرتغاليين ، مرورا بالهولنديين والفرنسيين ، انتهاء بالانكليز ، تحسب حسابا كبيرا لمواقف الدولة العمانية من سياستها ومطامحها في الخليج . وتعتبر عمان ، تاريخيا ، أول دولة عربية تستقل وتنفصل عن الخلافة العثمانية وتقوم بتحرك واسع على الصعيد العربي والدولي ، وذلك قبل أن يؤسس محمد علي حكمه في مصر بعقود عديدة من السنين . غير ان هذه الدولة أخذت تمزقها الخلافات العشائرية من الداخل ، كما ان لحاقها بركب العلم والتقدم أخذ يتلاشى تدريجيا ، وجاء النفوذ البريطاني المتربص

ليجهز على البقية الباقية . وهكذا ، اخذ الوطن العماني يتجزأ منذ
اواخر القرن التاسع عشر الى الكيانات المصطنعة الآتية :

1 . سلطنة مسقط التي احتفظ لها الانكليز باستقلال اسمي
واغلقوا ابوابها أمام العالم بصورة كلية حتى تحولت الى أكثر
مناطق الدنيا جمودا وانعزالا ، وعملوا على ابعادها عن العالم
العربي ، بتشجيع هجرة العناصر الهندية والبلوشية اليها .

2 . أمانة عمان الداخلية في الجبل الاخضر : وهذا القسم لم يهتم
الانكليز بالسيطرة عليه داخليا لبعده عن طرقهم البحرية ،
لذلك اكتفوا بعزلة خارجيا ومحاصرته . ولكن عندما قام
ائتمته بحركة مناوئة للانكليز وحليفهم السلطان ، تم ارسال
قوة عسكرية انكليزية قضت على الامامة التي اعترف بها
الانكليز في معاهداتهم السابقة .

3 . ساحل عمان : وهو الذي سماه المؤرخون والرسميون البريطانيون
((ساحل القراصنة)) ثم أصبح يدعي - تحت حكمهم -
بالساحل المتصالح . وقد كانت تحكمهم دولة القواسم العربية ،
غير ان الانكليز قضوا عليه بحجة محاربة تجارة الرقيق . وقد
قام الاسطول البريطاني حوالي سنة 1880 بتدمير مدينة رأس
الخيمة تدميرا كليا وقضى على اسطول القواسم العربي .

ونحن في هذا المجال لا نود الاشتراك في مهرجان الخطابية
العربية اللاعنة للاستعمار ، غير اننا في نطاق هذا العرض
التاريخي لا نستطيع ان نمر مرور الكرام تجاه السلوك البريطاني
الاستعماري في القطر العماني . ولا بد من تسجيل الحقيقة

كاملة من وجهة نظرٍ عرب الخليج ، خاصة ان بريطانيا تنسحب اليوم عسكرياً من الخليج وهي تتبجح بما أدته للمنطقة من خدمات ((حضارية))! أن أول ما يكشف زيف الادعاء البريطاني هو هذه المفارقة العجيبة : يزعم الانكليز انهم احتلوا ساحل عمان بحجة القضاء على تجارة الرقيق ، غير انهم فعلوا كل ما في وسعهم لدعم سلطان مسقط الذي ظل يحتفظ - بعلم الانكليز ورضاهم - باعداد هائلة من الرقيق في سلطنته حتى سنة 1970 عندما قرروا بأنفسهم عزلة تمهيدا لتنفيذ سياساتهم الجديدة (والغريب ان الصحافة البريطانية ((الحررة)) لم تكتشف ان سلطان مسقط يتعامل بالرقيق الا عندما قررت وزارة الخارجية البريطانية عزلة في يوليو(تموز) 1970!) يقول شارلز بلكريف - وهو احد اساطين العقلية الاستعمارية التقليدية في تاريخ الخليج : ((انه من المؤسف ان الجيل الجديد من ابناء العرب في الخليج لا يدرك أن ارواحا بريطانية كثيرة قد أزهرت في سبيل وقف تجارة الرقيق ونشر السلام والتمدن في ربوعه)) (1) .

ان الحقيقة المجردة هي ان الوجود البريطاني في المنطقة لم يتح لشعبها اي تطور حضاري اوسياسي يذكر ، برغم الامتيازات الهائلة التي نالها البريطانيون من وراء استخدامهم لقواعد المنطقة وموانئها ، واستغلالهم لنفطها ، وتحويلهم اياها الى سوق استهلاكية واسعة لبضائعهم . وقد حرصوا منذ البدء على تضمين معاهداتهم مع بلدانها بندا اساسيا يحرم على أي بلد الاتصال بدول العالم الاخرى

(1) راجع خاتمة كتاب ((ساحل القراصنة)) لشارلز بلكريف (بالانكليزية) .

من دون اذن بريطانيا ، حتى من أجل فتح مدرسة او توظيف معلم او استقدام طبيب! يقول البعض ان اليمن ظل متخلفا ومنعزلا لان الاستعمار لم يدخله . اصحاب هذا الرأي يجب ان يزوروا عمان ليروا كيف ان الاستعمار كان العامل الاساسي في تجزئة البلاد العمانية وانها كها وعزلها وابقائها في حالة من التخلف الرهيب الذي ما كان من الممكن ان يستمر لوبقيت وشأنها تتصل بالعالم ، وتحثك بالحضارة ، حتى حسب امكاناتها الذاتية البسيطة . في ساحل عمان - حيث لا يزيد السكان حاليا على مئة الف - خلق الانكليز سبع وحدات سياسية وأوهموا شيوخها بانهم حكام لدول قائمة بذاتها ، مع ان هذه الكيانات ليست سوى قرى فقيرة مبعثرة على الساحل المقرر الاجرد . هذا الساحل الذي لم يعبد الانكليز فيه - على مدى قرن ونصف - طريقا واحدا ، ولم يفتحوا فيه مدرسة ابتدائية أو مستوصفا للعلاج البدائي ، بالاضافة الى انهم منعوه من الاتصال بالعرب والعالم لطلب العون ، وخنقوا فيه المبادرات الاصلاحية لنشر التعليم حتى ولو كان مواطنوه مستعدين للقيام بها على نفقتهم الخاصة . بل ان بريطانيا كانت توجه التهم الخطيرة الى كل عماني يطالب بنشر التعليم وتعهد الى مطاردته ونفيه . وقد ظل الامر كذلك حتى فكرت الجامعة العربية سنة 1965 في انشاء مكتب للتطوير في الساحل . عندما قامت قيامة الانكليز ولم تقعد ، وسارعوا الى منع الجامعة من فتح مكتبها ، كما عزلوا فورا حاكم الشارقة لانه تعاون مع الجامعة العربية وانشأوا مجلسا صوريا للتطوير في الساحل باشراف موظفين انكليز .

والواقع ان المشاريع العمرانية والصحية والتربوية لم تدخل

امارات الساحل الا بعدما تدفق النفط في السنوات الاخيرة بكميات غزيرة واضطر الانكليز الى السماح بتعبيد الطرق وبناء المطارات والموانئ والمدن الحديثة تسهيلا لاعمال شركاتهم ولمنفعة المصالح البريطانية . عندما تعذر عليهم منع فتح المدارس والمستشفيات في غمرة حركة البناء التجارية التي أرادوها حسب خططهم المرسومة . أما في الامارات لم يكتشف فيها النفط فأن الموضوع لا يزال كما هو قبل مئة سنة يقوم شاهدا حيا حتى هذه الساعة على الآثار الرجعية للسياسة البريطانية . شيء واحد سمحت به بريطانيا في الساحل هوتدق المهاجرين الايرانيين والهنود ، حيث يشكلون الآن أغلبية في أحد موانئه الرئيسية ، ويشكلون طابورا خامسا في سائر أجزائه . ولعل كثيرين من المهتمين بشؤون الخليج استغربوا وجود المصاعب العديدة التي جابهت اتحاد امارات الساحل بعدما قضت على الاتحاد التساعي . ان ذلك يعود - في الدرجة الاولى - الى عامل فقدان البناء الاداري والاجتماعي والسياسي بأبسط مفهوماته في الامارات السبع . ذلك البناء لم تسمح الادارة البريطانية بوضع ابسط اسسه خلال عهودها المظلمة الطويلة .

أما في سلطنة مسقط وعمان فقد كان الامر أسوأ مما عليه في الساحل . لقد استمر الانكليز يدعمون السلطان سعيد بن تيمور في سياسته التي ابقت الشعب العماني فيما هو ابشع من حياة القرون الوسطى ، حيث استمر نظام الرق ، وفقد المواطن العماني حقه في أبسط مقومات الحياة من حرية تملك وسفر ، وحتى حرية العيش اليومي البسيط حسبما تتمتع بها اشد القبائل الافريقية بدائية ، فقدھا الانسان العماني . أن جميع العرب - شعوبا ومسؤولين -

يجب أن يدركوا اليوم فداحة الآلام البشرية التي عاناها الشعب العماني في ظل السيطرة البريطانية ((الحضارية)) لقد دمر الاستعمار البريطاني الانسان العربي العماني جسديا ونفسيا وروحيا وشل طاقاته شلا تاما ليحول بين عمان وممارسة دورها الطبيعي كقوة ذات أثر في سياسة الخليج ، كما كانت تفعل قبل عهود الاستعمار . وكردة فعل لهذه السياسة البريطانية التدميرية ، حدثت ثورة ظفار المسلحة في الجنوب الغربي من عمان . ويقوم الانكليز اليوم بلعبتهم التقليدية في ((تمثيل)) دور الحامي لنظام سلطان عمان ضد هذه الحركة . وتكسب بريطانيا من وراء تمثيل هذا الدور مبلغ 25 مليون جنيه سنوياً تدفعها عمان من نفطها المكتشف حديثا والذي لم ينتفع به شعبها بعد ، على هيئة رواتب للضباط الانكليز المرتزقة ومكافآت تعويض لشركات الآليات والصيانة والطيران البريطانية التي تساهم في ((تمثيل)) دور التصدي للثورة . وستظل بريطانيا تلعب بالاوراق ، بهذه الطريقة ، الى امد طويل لتوهم بلدان الخليج وحكوماتها انها لا تزال تحميها من الاخطار الداهمة . وان ((الحاجة)) الى وجودها لا تزال ماسة .

ويخطيء من يتصور ان بريطانيا ستحفظ حرمة العهود والمواثيق التي توقعها . ان مصالحها الشوفينية هي التي ستقرر مواقفها . وفي الامس القريب قامت - كما هو معروف - بالاطاحة بأصدقائها السلاطين في الجنوب العربي . وفي الامس الاقرب تركت شيخ رأس الخيمة يواجه بشرطته ، الغزوالايراني للجزر ، مع أن معاهدتها لم تنته معه بعد . ومع انه يفترض في بريطانيا ان توقع مع دولة الساحل ((معاهدة صداقة)) جديدة لحمايتها في المستقبل ، وأي

مستقبل؟ لقد ظلت بريطانيا تستفيد من الخليج لاغراض عسكرية واقتصادية وسياسية مدة قرن ونصف . فماذا قدمت اليه بالمقابل؟ ان ما فعلته في عمان لا يحتاج الى زيادة ايضاح . في الكويت والبحرين حدثت حركة تقدم بسبب الحافز الذاتي الموجود في البلدين لدى الشعب والمسؤولين . وكانت بريطانيا حتى منتصف هذا القرن تضغط حوافز التقدم لدى الكويتيين والبحرينيين الى ادنى حد وأقل درجة . اما خنقها لبوادر التطور السياسي الديموقراطي فيقوم عليه أكثر من دليل . . . يكفي ان نذكر انها اعتدت اعتداء سافرا على استقلال البحرين الداخلي سنة 1923 وعزلت حاكمها الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ، لا لشيء الا انه اتفق مع قادة الرأي في بلاده على تأسيس مجلس استشاري للنظر في شؤون البلاد! وحتى في مجال المساعدات الثقافية والتقنية ، لم يحصل أبناء الخليج على أية فوائد تذكر . وترفض بريطانيا بخبث كل طلب من بلدان الخليج لمدها بالخبراء في حقول التنمية الحقيقية ، وفي مجالات تقديم البحوث الدراسية للشباب الراغب في مزيد من التعليم . وعلى سبيل المفارقة التي تدعوالى الرثاء والسخرية معا ، نذكر ان بريطانيا وقعت قبل سنة ((معاهدة ثقافية)) مع اسرائيل تابع للدولة الصهيونية ان تستفيد من المساعدات الثقافية البريطانية خلال عامين ، مالم تستفده بلدان الخليج من مساعداتها الهزيلة خلال ربع قرن! ذلك هوالمعنى ((الحضاري)) للاستعمار البريطاني في الخليج ، وما زال وضع عمان أصدق شاهد ودليل .

بعد التطورات السياسية الاخيرة في الخليج ، تبلور الوضع في القطر العماني على النحو الآتي :

1 . دولة الامارات العربية المتحدة :

وهذه الدولة الاتحادية التي ولدت بعد مخاض عسير بسبب التناقضات الداخلية فيها ، هي أكثر مناطق الخليج حساسية وقابلية للتعرض للمطامح الايرانية . ان هذه المنطقة غنية جدا ، وقليلة السكان حيث تكاد كثافتها السكانية تصل الى الصفر في كثير من الاجزاء . هذا بالاضافة الى وجود مهاجرين ايرانيين باعداد ليست بالقليلة في بعض أجزائها الهامة . اصف الى ذلك ان هذه المنطقة مكشوفة استراتيجيا ولا تمتلك اية مقومات طبيعية تحويها من خطر اعتداء خارجي مباغت . واذا كانت هذه الدولة قد ولدت ولديها ((حساسية)) تجاه ايران بسبب احتلالها للجزر ، فأنها قد ورثت تركة تحتاج الى تصفية ، الا وهي الملابس القائمة حول موضوع البريمي بينها وبين السعودية . الا ان البادرة السعودية بالاعتراف بحكومة سلطنة عمان الجديدة بعد زيارة السلطان قابوس للرياض - برغم التزام السعودية السابق بالاماميين منافسي السلطان - يفتح الباب لموقف مماثل مع دولة الامارات . وهذا امر حيوي بالنسبة الى خلق جبهة عربية متماسكة في الخليج وشبه الجزيرة . من ناحية أخرى ، ينتظر أن تتجاذب هذه الدولة تيارات في حقل السياسة الخليجية :

1 . التيار الاول ، هوتيار ((الوطنية العمانية)) حيث تنتمي امارات هذه الدولة السبع الى عمان الام تاريخيا واجتماعيا وجغرافيا وشعوريا . غير ان عمان لا تستطيع الان ان تدخل في أية مشاريع اتحادية بسبب اوضاع التخلف والتمزق التي تعانيها

والتي تحتاج الى وقت طويل من الاستقرار والبناء حتى تتمكن من الانفتاح على الخارج .

2 . أما التيار الثاني فهو اتباع سياسة كونفدرالية مع الكويت والبحرين وقطر ، حيث يقوم تماثل وتشابه في الانظمة والاوزاع الاقتصادية والمسائل المشتركة بين هذه الدول الخليجية ودولة الامارات . بمعنى آخر ان تبعث الحياة في مشروع الاتحاد التساعي بمشاركة كويتية .

2 . سلطنة عمان :

لم تبدأ بذور الادارة الحديثة في عمان كما تبين ، الا في منتصف سنة 1970 عندما عزلت بريطانيا السلطان السابق سعيد بن تيمور ، حليفها التاريخي ، بعدما ظلت تدعمه حوالي ثلاثين سنة وتعتذر عن عدم قدرتها على عزله لانه

((سلطان)) مستقل لا ((سلطان)) لها عليه! واذا علمنا ان الادارة الحديثة بدأت في البحرين والكويت منذ أوائل العشرينات ، أدركنا مدى تخلف عمان عن جيرانها في الخليج ذاته . وتواجه عمان اليوم تحديات خطيرة لا بد من اجتيازها حتى تنطلق كدولة في ميدان الاستقرار والبناء الداخلي والمشاركة العربية والخليجية :

1 . في حقل الادارة الحكومية والخدمات العامة لا بد من عمل سريع خارق برغم نقص الكفاءات ، والبداية من نقطة الصفر في كل ميدان .

2 . في حقل الوحدة الوطنية يحتاج الامر الى تقريب وجهات النظر وخلق الشعور الوطني الواحد ، بعدما عاشت البلاد كعشائر ومذاهب ومقاطعات منفصلة . وغير ممكن ان يقوم استيراد سياسي دون هذه الوحدة الوطنية . ونقصد على وجه التحديد خلق تقارب بين رجال السلطان وجماعة الامامة بالاضافة الى فتح مجال المساهمة في البناء الوطني امام ابناء ظفار ، وهوما يسعى اليه السلطان قابوس منذ توليه الحكم .

3 . ان تعمل عمان على تجسيد انضمامها الى الجامعة العربية وهيئة الامم بممارسة مستقلة ، وهي الدولة ذات الصيت البعيد في العلاقات الدولية تاريخيا .

غير ان ما يشل حركة عمان دوليا حتى الان هو الموقف البريطاني . ان بريطانيا في خطط انسحابها العسكري من الخليج ، لم تعلن انها ستسحب من عمان . وتوجد الآن قوات بريطانية في جزيرة مصيرة التي منحها السلطان المعزول لحكومة ((صاحبة الجلالة)) . . . كما ان ((جيش عمان)) المحلي لا يزال يعمل فيه عدد من الضباط المرتزقة الانكليز ، ويستنزف موازنته سماسرة السلاح البريطانيون . فاذا علمنا ان هذا النفوذ البريطاني المقيم بدأ ينافسه نفوذ صيني وافد عبر ظفار ، ادركنا مدى الخطر الذي يتهدد عمان من جراء الصراع الدولي ، وهي لا تزال تخطو خطواتها الاولى نحو الاستقرار وبناء ذاتها من الداخل . ان مسارعة الاطراف الوطنية العمانية جمعاء نحو الالتقاء حول حد أدنى من العمل المشترك في هذه المرحلة ، أمر في غاية الاهمية لانقاذ المصير العماني مما يتهدده . اما الاعتماد الكلي على بريطانيا وسياساتها فلن يزيد

الطين الابله . ومما يؤكد هذا التلخوف التغير الوزاري الذي أدى الى
خروج السيد طارق بن تيمور ورجاله من الحكم ، وهوما فسرله خبراء
الشؤون العمانية بأنه انتصار لكافة المصالح البريطانية والمستشارين
البريطانيين ضد مصالح غربية أخرى حاولت منافسة بريطانيا في
عمان اقتصاديا .

الفصل الثالث

هذا الخليج: بنيته الاجتماعية - الاقتصادية

ملامح الهرم الاجتماعي

بعدهما تحدثنا بشيء من التفصيل عن الاجزاء والمناطق المكونة لحوض الخليج عربيا وايرانيا ، نلقي الآن ((نظرة الطائر)) على بنيته الاجتماعية وتكوينه الاقتصادي خلال القرنين الماضيين :

تاريخيا ، نرى ان كل عنصر سكاني في الخليج يرتبط بأنواع معينة من المهن والحرف ، كما هو الحال في أقسام أخرى من العالم العربي . وهكذا يسير الوضع الاقتصادي - الطبقي للسكان من نوعية أصولهم ومنشئهم الاجتماعي في خطوط تكاد تكون متوازنة .

1. العناصر المنتمة الى العشائر العربية احتفظت بمراكزها كهيئات حاكمة . وكانت هذه العشائر في كل بلد تقيم بينها ((حلفا)) عاما على طريقة الاحلاف العربية القديمة في عصور الجاهلية وصدر الاسلام . وتستنفر اطراف هذا الحلف في حالة تعرض الحكم للخطر ، أو قيامه بالغزو . وتنال هذه الاطراف المغام والمناصب حسب أهميتها وانسابها وادوارها في حالة الاستيلاء على مناطق جديدة وتحقيق مكسب من المكاسب . نذكر ، على سبيل المثال ، أن آل الصباح وآل خليفة والعشائر التابعة لهم كانوا يمثلون حلفا عربيا واحدا في الخليج . ولما هاجر آل خليفة من الكويت ونزلوا في الزبارة في شبه جزيرة قطر تزعموا حلفا جديدا من مجموعة العشائر العربية القاطنة في المنطقة كالنعيم والجلاهمة والبنعلي والدواسر والمعاودة . وهذا الحلف الذي عرف باسم ((العتوب)) هو الذي افتتح البحرين . وكان آل ثاني فرعا من هذا الحلف ، فلما انفصلوا وأسسوا حكمهم في قطر تزعموا حلفا جديدا من العشائر الموجودة هناك . وكان يطلق على هذه العناصر جميعا في الخليج اسم ((العرب)) ، اشارة الى انتمائهم الى قبائل

عربية معروفة في شبه الجزيرة ، و تميزا لهم عن العناصر السكانية الاخرى التي وان كانت عربية في انتمائها القومي فانها لا ترتبط بنسب قبلي محدد⁽²⁾ . وكان زعيم هذه الاحلاف العربية الحاكمة هو ((رئيس)) الاسرة المالكة و((شيخ)) العشائر المنضوية تحت لوائه و((حاكم)) البلد الذي سيطر عليه الحلف المشترك . وكان الشيخ يقرر الامور العامة بمشورة كبار رجال العشائر وعدد من كبار التجار .

2 . والجدير بالذكر ان الاسرة المالكة في غالب الاحيان تكون زعيمة للفئة التجارية بالاضافة الى كونها قائد للعشائر المتحالفة . فلقد كان لكل من آل الصباح وآل خليفة وآل ثاني والقواسم وآل نهيان نشاطات تجارية قبل وصولهم الى الحكم وبعده ، وخاصة الاتجار مع الخليج والهند ، والعمل في صناعة اللؤلؤ التي اشتهر بها الخليج العربي خلال تاريخه كله . ولعل في هذه الصلة التاريخية الوثيقة بين الهيئة الحاكمة والفئة التجارية في بلدان الخليج ما يفسر النفوذ الواسع الذي يتمتع به التجار في هذه البلدان في الوقت الحاضر بشكل يفوق كثيرا حجمهم ودورهم الحقيقي في مجتمعات الخليج الحديثة ، اذ تجدهم يشكلون أغلبية المجالس ((الاستشارية)) و((الاشرافية)) ويتمتعون بامتيازات تفوق الحصر ويمثلون ((قوة ضاغطة)) في الشؤون العامة ، بينما هم عدديا لا يمثلون الا اقلية محدودة اذا ما قورنوا بطبقات العمال وأصحاب المهن والحرف والطبقة المتوسطة الصغيرة وفئات المثقفين والموظفين . وهكذا نرى ان قمة الهرم الاجتماعي في الخليج خلال المئتي سنة الاخيرة تتكون من شقين : شق قبلي وآخر تجاري . وان هذين الشقين تجمع

(2) أي أن كلمة ((العرب)) تستخدم في مجتمع الخليج المحلي بالمعنى الذي عناه ابن خلدون في ((المقدمة))

بينهما في أعلى قمة الهرم شخصية ((الشيخ)) أو ((الحاكم)) الذي كان يمسك بيده الامور السياسية والامور التجارية الهامة في وقت معا . واذا كان الشق القبلي ، الذي هو صاحب النفوذ السياسي ، يتكون من القبائل العربية ، فإن الشق التجاري كان ولا يزال - يتكون من عرب ((الهولة)) وأعيان الشيعة الذين دخلوا الميدان التجاري بحكم ثرواتهم في المجال الزراعي اصلا ، أوبحكم مكانتهم القيادية ، بالإضافة الى عدد من المهاجرين الايرانيين والهنود الذين وفدوا الى الخليج كعمال وحرفيين ثم ساعدتهم الظروف السائدة على الصعود بسرعة ليدخلوا ضمن الفئة التجارية النافذة . هذا ما يتعلق بتكوين قمة الهرم الاجتماعي في الخليج ، أما فيما يختص بتركيب قاعدة الهرم - أي الطبقات العاملة - فإن الصورة تتكون من العناصر الآتية :

1 . عمال البحر :

منذ عهود طويلة والخليج مجال واسع للنشاط البحري . فالالتجار مع الهند وفارس والعراق كان عملا مربحا وشائقا . واستخراج اللؤلؤ الذي اشتهر به الخليج مثل صناعة محلية ذات طابع اسطوري مثير . وامتلاء مياه الخليج بأصناف الاسماك وتوافر أحجار البناء في قاعة كانا مجالين آخرين للمهن البحرية . لذلك ازدهرت صناعة محلية متقدمة لبناء السفن والمراكب الشراعية المناسبة لاجواء الخليج والبحار المجاورة . وكانت هذه السفن الخليجية على صغر حجمها تمتاز بقدرة فائقة على اجتياز عواصف الخليج وانواء بحر

العرب ومحيط الهند في رحلاتها الموسمية الشهيرة تقودها أيدي بحارة الخليج المهرة بين موانئ المحرق والمنامة والكويت والزبارة والخبر ودبي ، الى موانئ بمباي وكراتشي والبصرة وعدن . وكانت الرساميل التجارية ، والرساميل الموظفة في صناعة صيد اللؤلؤ محتكرة بين الاقلية الغنية . وكان عمال البحر ، برغم جهدهم ومهارتهم ، يعيشون في ضنك ولا ينالون الا الفتات من هذه الاعمال المدرة للارباح الطائلة . وفي الثلث الاول من القرن العشرين تنامت في الخليج ((بروليتاريا)) بحرية ذات شأن من الغواصين وعمال البحر الآخرين . وقد قام هؤلاء بعدة انتفاضات وحركات تمرد ضد طواشي اللؤلؤ وطبقة التجار المستغلين ، ولكن سرعان ما تدخل الانكليز لاضماد هذه التحركات العمالية ، ودعموا الاقلية التجارية التي أخذوا يعدونها لدور ((الوكالة)) عن مصالحهم الاقتصادية المتنامية في الخليج . ثم أخذت هذه البروليتاريا البحرية الخليجية تتفتت بسبب اضمحلال صناعة اللؤلؤ الطبيعي ، وحلول السفن التجارية الكبيرة التي تملكها الشركات البريطانية محل المراكب المحلية . وكانت هذه الشركات البريطانية تحرص على التخلص من عمال الخليج العرب ليحل محلهم بحارة أغراب من الايرانيين والهنود والبلوش ونفایات شعوب الكومنولث البريطاني . والجدير بالذكر ان الانكليز قاموا في هذا المجال بدور مزدوج : عملوا على تفتيت الطبقة البحرية العمالية العربية وتشريدها ، لكنهم في الوقت ذاته أنقذوا الطبقة التجارية الاستغلالية التي تعرضت للخسارة بسبب تدهور أسواق اللؤلؤ وتوقف سفنها الصغيرة عن العمل ، باعطائها توكيلات الشركات التجارية وأعمال التصدير والاستيراد . وهكذا تعرض عمال الخليج للتشرد ، بينما ازداد التجار

ثراء واستغلالا لمجتمع الخليج بفضل هذه السياسة البريطانية . وقد وصل عداء الانكليز للطبقة البحرية العربية العاملة في الخليج ، الى حد ان المستشار الانكليزي في البحرين - شارلز بلكريف - عمد الى محوحتى الجانب الفولكلوري من حياة الغواصين الخليجيين ، رغبة في القضاء عليهم قضاء مبرما . لقد كان للغواصين ((دُور)) للطرب والاجتماع ، وكانت هذه ((الدُور)) بمثابة اندية شعبية يلتقي فيها الغواصون ايام الشتاء لاحياء طربهم وفنونهم البحرية . وعندما أحس الغواصون والبحارة بالخطر المحدق لتشتيتهم وقطع أرزاقهم أخذوا يتداولون في هذه الاندية أمور عملهم ومشاكلهم ومصيرهم . واضطروا ، في وجه المؤامرة الانكليزية ، الى ان يهبوا في انتفاضات عمالية دفاعا عن وجودهم . ولم يكتف المستشارون والضباط الانكليز بسجن الغواصين والبحارة وتعذيبهم وحرمانهم قوت يومهم واطلاق الرصاص عليهم ، بل عمدوا الى هدم تلك ((الدُور)) واعتبروا انشاء أية دار جديدة ، أوالتجمع العمالي في اي مكان من اجل احياء فنون الطرب الخليجي البحري عملا مخلا بالقانون! والواقع ان دارسي الفولكلور الشعبي في منطقة الخليج يجدون ان هدم تلك الدُور الشعبية ذات الطابع البحري الخليجي الاصيل خسارة لا تعوض من وجهة النظر العلمية في دراسة الفولكلور . نقول : ان هذه ((المأثرة)) يجب أن تضاف الى مآثر بريطانيا العظمى ((الحضارية)) في منطقة الخليج! وبعد اضمحلال التجارة المحلية وصناعة اللؤلؤ أخذ عمال البحر ينتقلون الى العمل لدى شركات النفط والشركات الاجنبية كعمال يوميين بأجور متدنية . وهكذا قدر لعمال الخليج ان ينتقلوا من مواجهة الاستغلال ((العصري)) و((المنظم)) للشركات الاجنبية .

2 . المزارعون :

كان للزراعة شأن كبير في الخليج خلال عصور تاريخه . ومن أشهر المناطق الزراعية في الخليج التي ازدهرت في القرنين الماضيين : البحرين - القطيف - عمان الداخل . وقد نشأت في البحرين والقطيف مجتمعات زراعية على درجة من التطور . وكان الشيعة العرب في الاغلب هم الذين يتولون الاعمال الزراعية . وقد برعوا في تنظيم وسائل الري في قنوات باطنية وادخلوا العديد من انواع المزروعات . بالاضافة الى ما حققوه في مجتمعاتهم الزراعية هذه من تطور ثقافي لم يقتصر اثره على مراكزه الاصلية في البحرين والمنطقة الشرقية ، بل امتد ليؤثر في المنطقة كلها خصوصا بعد الغزو البرتغالي للخليج وما ولده من احتكاك وتفاعل . وبالنظر الى ان المجتمعات الزراعية تكون عادة مجتمعات مستقرة ومسالمة ، فأن مجتمعات الخليج تعرضت - كمثيالاتها في الهلال الخصيب - للهجرات الآتية من جزيرة العرب وخضعت لتأثيرها . وعبر التاريخ العربي ، كان ((أهل البادية)) الذي يتصفون بالفروسية والقدرة على الحركة والتأهب يسيطرون على ((المجتمعات الزراعية)) الوادعة المجاورة ، ويتحولون فيها الى عناصر متغلبة . وهذا ما حدث في الخليج بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ثم توقفت هذه الظاهرة التاريخية المستمرة ، بسبب استقرار هذه المجتمعات وتأثرها بتنظيمات الحياة العصرية الحديثة . ولم تعرف مجتمعات الخليج الزراعية الاقطاع بمعناه التقليدي ، وكانت الارض الزراعية موزعة في الاصل بين عدد كبير من العائلات التي تقوم بزراعتها والاستفادة منها .

ذلك لا يعني ان الفلاحين الفقراء في قرى الخليج لم يتعرضوا للاستغلال . على العكس ، لقد اصابهم من الاجحاف مثل ما تعرض له الغواصون والبحارة ، ان لم يكن أسوأ . فقد استطاع الملاكون الزراعيون في الريف ، بالتحالف مع تجار المدن وزعماء العشائر ، حصر الملكية الزراعية في أيديهم بالتدريج ، واخذوا يستخدمون الفلاحين الفقراء وعائلاتهم في العمل في مقابل قوت يومهم لا غير ، ودون وجود اية ضمانات اوقوانين تحميهم بأي شكل من الاشكال .

وهكذا نرى ان المجتمع الخليجي التقليدي - خلال القرنين الماضيين - ينقسم الى نمطين من الحياة الاجتماعية - الاقتصادية : المدينة البحرية - والقرية الزراعية . غير ان البيئتين تعرضتا معا لسيادة ((تحالف فوقي)) واحد ، مكون من كبار زعماء العشائر وكبار تجار المدن وكبار اغنياء الريف . ثم جاءت على قمة هذا التحالف - بعد الاحتلال الانكليزي للخليج - الفئة الانكليزية المسيطرة من اداريين وعسكريين ورجال أعمال ، بالاضافة الى مئات التجار الاجانب من ايرانيين وهنود . وقد عمل الانكليز على استغلال الفروق السطحية الاجتماعية - الاقتصادية - الطائفية بين بروليتاريا المدن البحرية وبروليتاريا القرى الزراعية ليحولوا دون التحام الفلاحين بالبحارة في نضال موحد . الا ان هذه الفروق آخذة في الزوال بتفتح الحس الشعبي والوعي القومي والاجتماعي لتلتقي قوى الشعب جميعا حول قضية المصير . من ناحية أخرى حاولت ايران في الماضي ان تستغل علاقاتها المذهبية مع الشيعة العرب لتوسيع نفوذها ، غير ان هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع ، واثبتت بشكل قاطع ان الشيعة العرب لا يستلهمون التوجيه الايراني ، بل

ينهلون في تشيعهم من المنابع الاصلية الصافية لتيار التشيع العربي عندما بدأ بقيادة الامام علي والشهيد العظيم الحسين - وبعدهما رجيل طويل من ثوار التشيع الاصليين - ضد استعباد بني أمية .

3 . الطبقة المتوسطة الصغيرة؛

الى هذين القطاعين الواسعين من البحارة والفلاحين ، كانت هناك فئة من أرباب المهن والحرف اليدوية التقليدية التي شبه مثيلاتها - على نحو مصغر - في الاسواق القديمة في الشام وبغداد والقاهرة . بالاضافة الى عدد من صغار التجار الذين مثلوا مع الحرفيين طبقة متوسطة صغيرة . وقد كانت هذه الطبقة قليلة العدد نسبيا في مطلع القرن ، الا انها أخذت في التنامي منذ ذلك حتى اصبحت توازي في حجمها طبقتي العمال المزارعين ، خاصة ان ظهور النفط في الخليج ادى الى اضمحلال شأن الزراعة فتحول مزارعون كثيرون الى طبقة العمال او الى ممارسة الحرف الصغيرة المستقلة مما جعلهم في عداد هذه الطبقة المتوسطة الصغيرة . وفي الجيل الثاني استطاع ابناء هذه الطبقة بحكم تركيبهم الاجتماعي وعقليتهم ، ان يكونوا اول من ينفتح للتعليم العصري ، الذي مكنهم بعد ذلك من تسلم الوظائف الحكومية والمناصب الادارية في المؤسسات والشركات . وقد حملت هذه الطبقة المتوسطة الصغيرة الكثير من أعباء التغيير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي في المنطقة . ومع تدفق النفط اخذت في الاتساع لتصبح طبقة قيادية في المجتمعات الخليجية ، وهذه الطبقة هي التي قادت الطبقات

الاجتماعية الدنيا في الحركات السياسية التي شهداها الخليج خلال الاربعينات والخمسينات . ومن المنتظر ان تلعب هذه الطبقة دورا متعاظما في مستقبل الخليج السياسي بعد قيام دولة الجديدة . هذه هي الصورة التاريخية لتطور البنية الاجتماعية - الاقتصادية في الخليج خلال المئتي سنة الماضية . وما لا شك فيه ان التطور الذي شهدته المنطقة منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا ، قد غير شيئا من معالم هذه الصورة ، وان لم يغيرها كليا . غير ان هذا التطور لم يدخل الخليج في وقت واحد ولم يتغلغل فيه بدرجة واحدة . لقد لاحظنا ان عمان لم تبدأ عصرها الحديث الا سنة 1970 ، بينما بدأت حركة التحديث في البحرين والكويت سنة 1920 ودخلت قطر في الصورة سنة 1950 تقريبا ، وتلتها ابوظبي وبعض امارات الساحل حوالي سنة 1960 . اما المنطقة الشرقية فقد دخلت في اطار المملكة السعودية في الثلاثينات وتعرضت لما حدث في المملكة من تطورات منذ ذلك التاريخ . لذلك فأن صورة البنية الاجتماعية - الاقتصادية في الخليج لم تعد واضحة المعالم ، وغير ممكنة منهجيا معالجتها حسب التحليل العلمي - الاجتماعي بشكل محدد وواضح . ان الكثافة السكانية في اغلب مناطق الخليج ضئيلة ، كما ان التجزئة السياسية التي جعلت من الخليج ((بلقانا)) مصغرة تمثل عائقا نحو تفاعل مجتمع الخليج وطبقاته وعناصره السكانية تفاعلاً طبيعياً منسجماً مع قوانين التطور الاجتماعي . أضف الى ذلك أن ظهور النفط بكميات هائلة في بلدان صغيرة ادى الى خلق تناقضات حادة بين الفئات الاجتماعية ذات المستوى الواحد . فبينما لا يزال العامل في رأس الخيمة - مثلاً - ينال أجراً ضئيلاً يجعله علمياً في مستوى ((البروليتاريا الرثة)) ، ينال زميله في

الكويت وابوظبي اجرا مرتفعاً يجعله مادياً في عداد ((البورجوازية الصغيرة)). وهذا القياس ينطبق على أفراد الطبقات الاجتماعية الأخرى بشكل أوبآخر. من ناحية أخرى، وعلى صعيد القيم الاجتماعية والأخلاقية والنفسية، جاء النفط ليقفز بفئات تعيش عيشة بدائية إلى فئات تجارية واسعة الثراء، دون أن تمر هذه الفئات بأدوار التطور الطبيعي وتدخل العصر الحديث بصورة تدريجية. وهذا القول ينطبق على معظم مجتمعات الخليج في ما عدا مجتمع البحرين الذي لم يأت الثراء فجأة ولم يتدفق عليه النفط بغزارة حتى الآن. إن الفئات الاجتماعية التي تقفز فجأة من حياة البداوة إلى الحياة الاستهلاكية الحديثة على النمط الغربي تصبح مذبذبة في قيمها الاجتماعية والأخلاقية وفي تكوينها النفسي، حيث تكتسب عادة النظر إلى الأمور بمجانية واعتباطية، وتنظر إلى العالم كله من خلال ثرائها المفاجيء، فتتصور أن الحياة كلها بمثل هذه الاعتباطية، كما أنها تتوقع على ذاتها من ناحية أخرى خوفاً على ثروتها المفاجئة وتصاب بعقدة الاستعلاء الفارغ. والخطر من ذلك أنها تتوهم أنها دخلت العصر الحديث، بينما هي تعيش في حالة فقدان للجذور وحالة فراغ. فهي قد نسيت حياتها الأولى وما فيها من بساطة ورجولة وشيم أخلاقية، وهي لم تكتسب الحياة الحديثة وما يميزها من نظام وعلم وجدية وعمل. وهكذا تشتت في أخلاقها وتفكيرها ونفسياتها. ولا تعود تفهم من الحضارة إلا الكاديلاك الذي تعامله كجمل، والافيلة التي تتصرف فيها كخيمة، والاكيف الهواء الذي تنظر إليه كمروحة يدوية، والامدن السياحية الأوروبية التي تنبهر ازاء مباهجها الخارجية، وكأنها صندوق ((الدنيا والعجائب)) أو ((مسرح الفرجة)) الذي كان يزور أحيانا

المدن القريبة من البادية! جنباً الى جنب مع هذه الفئات الفاحشة الثراء ، الفاقدة لجذورها ، تعيش فئات متوسطة نشيطة ، وفئات فقيرة عاملة ، وفئات مثقفة تدرك أبعاد واقعها الصعب ، وترى كيف تتفاعل هذه التناقضات العجيبة . ويستمر تدفق النفط الغزير على بلدان صغيرة ، قليلة السكان ، ليميع حدود الاخلاق والمقاييس والافكار ، وليخلق من مجتمع الخليج مجتمعا ((فسيفسائيا)) لا يخضع لاي تصنيف علمي ، ومما يؤسف له ان هذه الثروة الهائلة لم تستخدم للقضاء على الاستغلال ، وسد الهوة بين الاغنياء والفقراء ، بل استخدمت لتخلق ارتباكاً في المجتمع ، ولتزيد من حدة تناقضاته . فهذه الثروة الهائلة تهدد في الناحية الاستهلاكية ، ولمصلحة فئات محدودة ، دون الجانب الانمائي الطويل الامد ، ودون مراعاة المصالح العامة وحاجات مختلف الفئات الاجتماعية ، وهذا الوضع من شأنه ان يعرض الخليج كله للإنهيـار في أي وقت يفقد النفط فيه قيمته الاقتصادية الحالية .

ملامح الوضع الراهن

مع الالتفات الى الاستثناءات والتحفظات المذكورة ، من الممكن تحديد الملامح العامة للتركيب الاجتماعي -الاقتصادي الحالي في الخليج بالشكل الآتي على وجه التقريب :

أولاً: في قمة الهرم الاجتماعي ما زال يقوم تحالف المصالح المحلية والتجارية بالاضافة الى مصالح شركات النفط العالمية والنفوذ السياسي الغربي .

ثانياً: في وسط التركيب الهرمي تقوم طبقة وسطى من ((البورجوازية الصغيرة)) تتألف من صغار التجار الوطنيين والمهنيين والموظفين والعمال ذوي الدخل المتوسط وفئات المثقفين الذين يتزايدون باعداد هائلة في كل عام ، خاصة في البحرين والكويت . وهذه الطبقة المتوسطة الصغيرة المثقفة ، على درجة كبيرة من التجانس في مختلف أجزاء الخليج بسبب طبيعتها الوطنية ، ولما تتمتاز به من مستويات ثقافية ، وبحكم تكوين عقليتها كبورجوازية صغيرة في مدن تجارية منفتحة . وعلى مستوى التحرك الاجتماعي - السياسي تمتلك مرونة وقدرة على المبادرة وتطلعات ذات أفق تاريخي في هذه المرحلة من تطور الخليج ومنطقة شبه الجزيرة العربية .

ثالثاً: في قاعدة الهرم ، هناك العمال ذوالدخل المتدني في بلدان الخليج النفطية ، ورجال العشائر الفقراء في الامارات التي لم يكتشف فيها النفط ، والفلاحون الفقراء في عمان الداخل . غير ان التجانس بين هذه الفئات ((البروليتارية)) (بروليتاريا بالمعنى الشرقي لا المفهوم العلمي للبروليتاريا) ضعيف ان لم يكن معدوما اذا نظرنا اليها من زاوية الخليج ككل وكمجتمع واحد . وعليه ، فمن الصعب التحدث عن هذه الطبقة في المرحلة التاريخية الحالية كطبقة منسجمة وناضجة وذات دور تاريخي مرتبط بها وحدها ، ومتوقف على مبادراتها الذاتية المحدودة . وهكذا يتبين من هذا التحليل ان التناقض الاساسي القائم اليوم اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا هوبين ((تحالف الطبقة التجارية الكبيرة)) و((الطبقة المتوسطة الصغيرة المثقفة)) وسواهما من الفئات العاملة . وبناء

على كل ذلك ، فالمرحلة القادمة من التطور الاجتماعي على صعيد الخليج ، يجب ان تتمثل في مطالب هذه الطبقة المتوسطة الصغيرة في الحكم الدستوري ، والتمثيل الشعبي ، وتوفير جوارح الحرية للعمل النقابي المهني ، وضمان حرية الرأي والصحافة وفتح المجال واسعا لنشاطات الثقافة والفكر والفن ، بالاضافة الى سن الضرائب ووضع التشريعات لمصلحة العمال والفئات الفقيرة والمتوسطة ، والحد من الامتيازات الهائلة التي تتمتع بها الفئات التجارية الكبيرة ، وتغيير وضعية الاحتكارات الاقتصادية البريطانية التي ترسخت بسبب وجود بريطانيا السياسي - العسكري ، وذلك بفتح المجال امام العروض الدولية الجديدة لاختيار ما هو أفضل بالنسبة الى المصلحة الوطنية العامة ، وليس كما كان يحصل في السابق باعطاء بريطانيا الاولوية في كل شيء على حساب بلدان المنطقة انصياحا لنفوذها السياسي ، هذا النفوذ الذي يجب ان تنتبه القوى الوطنية العاملة في الاطار الدستوري البرلماني الى ضرورة وضع حد له ، كي لا تخرج بريطانيا عسكريا من الباب لتدخل سياسيا واقتصاديا من النافذة!

اذا صح تحليلنا الاجتماعي لواقع الخليج ، والاستنتاجات السياسية المترتبة عليه ، فإنه يتبين - عندئذ - ان ما تطرحه العناصر اليسارية العربية المتطرفة بشأن طبيعة النضال الوطني في الخليج خلال المرحلة المقبلة من تطوره ، يبدو غير وارد ، خاصة في ما تؤكد عليه هذه العناصر بشأن قدرة العمال الفقراء والقبائل الفقيرة على قيادة العمل السياسي .

فكما ورد في تحليلنا أنفا ، يكمن التناقض الاساسي في الفترة المقبلة ، بين الطبقة التجارية المستغلة الكبيرة والطبقة المتوسطة الصغيرة ، مما يعطي هذه المرحلة طابع التحرر الوطني والانفتاح الديموقراطي والدستورية والبرلمانية . اما الحديث عن ((ثورة القبائل الفقيرة)) أو((ثورة العمال المسلحة)) حسب المفهوم الماركسي في هذه المرحلة من التطور وظروف الخليج الاجتماعية وبيئته الطبيعية وما تحيط به من قوى دولية ومحلية ، فأمر لا يستند الى منهجية التحليل العلمي . ان الميل نحواعتبار ((الطبقة المتوسطة المثقفة الصغيرة)) جزءاً من ((معسكر الخصم)) سيكون خطأ استراتيجيا فادحا بالمعيار الوطني والتحرري ، كما ان محاولة البحث - لدى هذه الفئات اليسارية المتطرفة - عن التناقض الاساسي بين المصالح الامبريالية والمحلية من جهة ، والعمال والقبائل الفقيرة من جهة أخرى ، هي في الحقيقة قفز على واقع اجتماعي غير ممكن تجاهله ، ومحاولة لوضع معادلة غير متكافئة اطلاقا بين طرفين لا يوجد اي تناسب بين حجميهما . ان انضج نظرة وطنية في المرحلة التاريخية الراهنة من تطور الخليج ، هي التي تدعوالى تحالف وطني تقوده ((الطبقة المتوسطة المثقفة الصغيرة)) (نحن نتكلم عن الخليج ومن واقعه فقط!) من أجل نظام دستوري وبرلماني وحريات عامة واقتصاد مخطط للمصلحة الوطنية . وهذا خط عريض من الممكن أن تلتقي حوله جميع الاطراف التقدمية في الخليج ليمثل حداً أدنى من الوحدة الوطنية العربية في وجه الاطماع الاجنبية على اختلافها .

على الصعيد العربي يتوجب أن يكون من أبرز مهمات المرحلة ،
التخلص من الحواجز المادية والنفسية التي أقامتها بريطانيا -
خلال قرن ونصف - بين الخليج والوطن العربي ، والدعوة الى
المزيد من المساهمة في القضية العربية والالتزام بمتطلبات المعركة
ضد العدو الصهيوني ، وان تلتزم دول الخليج الغنية بما التزمت به
الكويت - كحد أدنى - من تأييد ودعم لدول المواجهة ، وان تنطلق
من الخط الكويتي في المساهمة في حقل التنمية العربية وتقديم
المساعدات لبلدان الخليج والجزيرة الفقيرة .

الخليج والقوى الدولية

اما على الصعيد الدولي فأن الامر يتطلب قبل كل شيء ،
التخلص من عقلية الحماية البريطانية وما فرضته من قيود وما
حددته من سياسات . ولا بد من عمل دراسة للسياسة الخارجية
تنطلق من الواقع الدولي الراهن . لقد غدت بريطانيا الآن دولة ثانوية
عالميا وعضوا في تجمع اوروبي كبير يقيدھا بسياساته ، كما برزت
على المسرح الصين الشعبية ، بينما يمضي الاتحاد السوفياتي قدما
في سياسة التعايش السلمي والتعاون مع دول العالم ، بغض النظر
عن أنظمتها المحلية ، وحيث تتفتح فرنسا ومن ورائها الكتلة الاوروبية
على العالم العربي بروح جديدة من محاولة التفهم ، وحيث يشدد
الضغط داخليا في الولايات المتحدة ذاتها من اجل مراجعة سياساتها
القديمة ومواقفها في العالم كله والتنبيه الى التيارات الفاعلة في عالم
اليوم . وفي ما يتعلق بموقف سياسة بلدان الخليج مع القوى الدولية ،
كل على حدة ، فلا بد من التنبيه الى الامور الآتية :

1 . بريطانيا

انسحبت بريطانيا عسكريا من الخليج والغت حمايتها واعترفت باستقلال دوله الجديدة . ان ذلك يجب أن يعني استقلال هذه الدول عن نفوذها السياسي والاقتصادي كذلك . ومنذ البدء جاءت بريطانيا عسكريا الى المنطقة كي تكسب لذاتها مكاسب سياسية واقتصادية . طبعاً لا يتصور المرء ان وجود بريطانيا السياسي والاقتصادي سيتلاشى بمجرد الاعلان عن انسحابها العسكري ، غير ان استمرار هذا الوجود بشكله الحالي الى أمد طويل سيلقى ظلالاً سوداء على معنى الاستقلال في الخليج . وهو أمر لا يريده اي غيور على مستقبل الخليج وبريطانيا ليست بالدولة التي تنال العجاب لسياستها الحضارية او الانسانية . وعليه ، فبقاء نفوذ بريطانيا السياسي والاقتصادي بعد رحيلها العسكري معناه استمرار العقلية الاستعمارية داخليا وخارجيا . وعلى عرب الخليج المتفائلين الذين ناموا على حرير واثقين ان بريطانيا ستحميهم من ايران ، ان يستيقظوا الآن بعد ((ذهاب)) الجزر ، وقبل ان يذهب ما هو اكثر منها . ورحم الله الشرطة العرب الاربعة الذين ماتوا دفاعا عن طنب! على جميع عرب الخليج ان ينتبهوا الى ان خلاصهم من الحماية البريطانية الرسمية لم يلق عنهم واجب العمل لتقليص نفوذ بريطانيا سياسيا واقتصاديا ونفسيا (وهذا هو الاهم!) . يقال : اذا رحلت بريطانيا عن بلد ظلت فيه سياستها قائمة مئة سنة أخرى ، هل سينتظر عرب الخليج هذه المئة سنة ليعرفوا معنى الاستقلال؟ ان اي مراقب محايد لن يستطيع ان يفهم - مثلا - لماذا تحتكر شركة الطيران البريطانية مطارات الخليج ، وشركة البرق واللاسلكي البريطانية امواج الخليج الهوائية ، وشركة كري

مكنزي البريطانية طرق الخليج البحرية الخ . اذا كان الخليج لا يزال محتاجا الى الخبرة الاجنبية والى التعاون مع الدول المتقدمة ، فلماذا لا يستفيد من وضع المنافسة التجارية بفتح المجال امام الشركات والعروض الفرنسية والاميركية والسوفياتية والالمانية واليابانية وغيرها ، بحيث تكون له الحرية ، في قبول ما يراه متناسبا مع مصالحه الوطنية في الدرجة الاولى؟ ان هذا يدخل في صلب معنى الاستقلال! واذا كان هناك بين العرب عامة ، وعرب الخليج خاصة ، من لا يريد أن يقطع ((شعرة معاوية)) مع بريطانيا ، فان عليه ان يتجشم مشقة اقناعها بانها يجب ان تراعى الظروف الجديدة في الخليج والتغيرات في الواقع الدولي ، وان تبدأ علاقاتها مع الدول الخليجية بروح المساواة والتفهم المتبادل ، وان تنهج في سياستها الاقتصادية مبدأ التنافس الحر مع بقية الدول الاخرى سواء بسواء الى آخر هذه ((الموعظة)) التي نرجوان تطرق الأذان البريطانية الصماء ، الا عن نداء المصلحة الانانية .

2 . الولايات المتحدة

من خلال علاقتها بالقوتين المحليتين الكبيرتين المحاذيتين للخليج : السعودية وايران ، تدخل الولايات المتحدة الى منطقة الخليج . كما ان الوجود البحري الاميركي في المحيط الهندي يجعل من حوض الخليج نقطة واردة في استراتيجيتها . اصف الى ذلك ما للشركات النفطية الاميركية من مصالح في هذه المنطقة الغنية بالنفط . وقد وردت اشارات اميركية كثيرة وتلتها خطوات عملية بعد ذلك تدل على اهتمام اميركي متزايد بمستقبل المنطقة ومستقبل علاقاتها معها . فقد زار الخليج مؤخراً وفد سياسي اميركي وآخر تجاري ، كما جاء نبأ تجديد الاستئجار الاميركي لجزء من ميناء الجفير البحريني ، وما أحدثه من ردود فعل عربية ودولية ، دليلاً على ذلك الاهتمام⁽³⁾ . وقد بدأ الدور الاميركي منذ بدأ ترتيب الاوضاع الجديدة في المنطقة يأخذ شكله الحالي . ويمكن القول ان جميع الاحداث المهمة في المنطقة منذ اعلان الانسحاب الانكليزي حتى اعلان استقلال دول الخليج الجديدة ، قد تمت بمعرفة اميركية مسبقة . ان الولايات المتحدة كقوة ذات حضور في الخليج والشرق الاوسط والمسرح الدولي ، مطالبة بأن تتفهم حقيقة تطلعات شعوب المنطقة ، وبأن تدرك طبيعة التطور الاجتماعي - السياسي الذي تمر به ، فلا تتخذ من المواقف ما يتناقض مع هذه التطلعات ، وهذا التطور . كما ان المطلوب منها ان ارادت صداقة حقيقية مع بلدان المنطقة ، ان تنظر الى الخليج العربي كم منطقة عربية قائمة بذاتها ، لها ظروفها ومصالحها وتطلعاتها الخاصة

(3) راجع بيان الخارجية البحرينية وتصريحات المسؤولين الاميركيين حول هذا الامر بتاريخ 8

9 كانون الثاني (يناير) 1972

بها ، لا ان تنظر اليها من خلال اي منظار خارجي غير خليجي وغير عربي (سواء كان هذا المنظار ايرانيا أواسرائيليا!) . اذا كانت الولايات المتحدة ترغب فعلا في تعاون حقيقي وتريد اثبات صدق نياتها ، فأن الفرصة لا تزال في بدايتها .

3 . الاتحاد السوفياتي

لقد اعترفت الحكومة السوفياتية باستقلال دول الخليج الجديدة . وكانت من قبل بدأت علاقات طيبة مع دولة الكويت . ومن نافلة القول الاشارة الى ان الاتحاد السوفياتي اصبح دولة ذات حضور رئيسي في الشرق الاوسط والعالم العربي . وهناك عدة عوامل تجعل الاتحاد السوفياتي يولي منطقة الخليج اعتبارا خاصا :
أ . ان له علاقات اقتصادية متينة مع ايران احدى الدول الرئيسية في المنطقة .

ب . وله علاقات اقتصادية وسياسية وعسكرية مع العراق . ويستطيع الاسطول السوفياتي ان يبحر عاب الخليج في أي وقت . وهو يقوم بزياراته الودية لميناء البصرة ((العراقي)) .

ت . كما ان العلاقات الهندية - السوفياتية المتنامية - والتي ادت الى نصر كبير للدبلوماسية الروسية - تجعل شبه القارة الهندية والمحيط الهندي منطقة رئيسية من مناطق الاهتمام السوفياتي المباشر . وهذا ما يجعل للخليج العربي - المتصل بالمحيط الهندي - اهمية لدى مخططي الاستراتيجية السوفياتية في آسيا .

اضف الى ذلك ، ان الاتحاد السوفياتي هو الحليف العالمي الرئيسي لحركة التحرر العربي ، والمناصر الدولي الاول للعرب في قضيتهم ضد العدو الصهيوني . وعلى ضوء ذلك كله ، فان اقامة علاقات صداقة وتعاون بين الاتحاد السوفياتي ودول الخليج ، هو أمر في مصلحة الطرفين وتوثيق للعلاقات العربية السوفياتية بصفة عامة . ويستطيع الاتحاد السوفياتي ان يقدم الدعم الثقافي والخبرة التقنية لبلدان المنطقة ، بالإضافة الى التبادل التجاري . ومن خلال الصداقة مع الاتحاد السوفياتي تستطيع بلدان الخليج ان تفتح على بلدان اوروبا الشرقية كلها لتستفيد من تجاربها وخبراتها .

4 . فرنسا والمجموعة الاوروبية

منذ ان انفتح الخليج على العالم في السنوات الاخيرة بعد تراخي قبضة العزلة البريطانية وهوساع في تلقي المؤثرات الحضارية العالمية التي حالت بينه وبينها سياسة بريطانيا الرجعية . ومن بين هذه المؤثرات الثقافة الفرنسية التي تتلاءم وعقلية الانفتاح التي اتصف بها الخليج منذ اقدم العصور . ان ذلك يتمثل في الاقبال الشديد على تعلم اللغة الفرنسية في اندية الاتحاد الفرنسي التي أنشئت في الكويت والبحرين . كما ان مجتمعات الخليج ذات الذوق الدقيق في اختيار ملابسها وازيائها الاجتماعية وطرقها المنزلية ، قد وجدت في المصنوعات الفرنسية ما يتلاءم مع ميولها . والا هم من ذلك ، يستطيع الخليج ان يستفيد من خبرة الشركات والمؤسسات الفرنسية في تنفيذ مشاريعه العمرانية والصناعية كطرف جديد

محاييد يوقف استثناء الاحتكارية البريطانية ، ويستطيع العمل تجاريا دون حساسيات سياسية او نفسية تثير المشاعر الوطنية وتعيد ذكرى السيطرة الاستعمارية وأساليبها في الاحتكار والاستنزاف . ان فرنسا ليس لها اي اطماع سياسية في الخليج ، وهي لا تهدد استقلاله الوطني . بل ان السياسة الفرنسية تجاه العرب تبرر مزيدا من الانفتاح نحو فرنسا في جميع المجالات ، وهوما تنبعت اليه - في المناطق المجاورة للخليج - كل من المملكة العربية السعودية والعراق والكويت وعملت على تأصيله وتعميقه .

5. الصين :

رحب العالم كله بدخول الصين المجال الدولي . وتنال الثورة الصينية اعجاب الجميع بغض النظر عن ميولهم السياسية . غير ان مما يؤسف له ان سلوك الصين في العالم الثالث بالذات غير ناضج ، ويتصف بالانتهازية والأنانية القومية . ان الصين لا تتصرف كدولة اشتراكية ثورية ملتزمة بمبادئ معينة ، ولا كدولة كبرى ذات مسؤولية في العالم . ان الدور الصيني - حسبما هو آخذ في الكشف - يشبه الى حد بعيد الدور البريطاني المتصف بالطابع الاناني وبالمصلحية الضيقة . لقد استبشرت الصين اياما استبشار ، وهلت اياما تهليل ، لتصفية اليساريين في السودان ، بينما كان الرئيس ((ماو)) - فور خروجه من اعتكافه الطويل الذي تحرق الكادحون لنتائج الثورة - يستقبل باجلال واكبار صاحب الجلالة الامبراطور هيلاسلاسي اكثر الاباطرة محافظة وتقليدية في العالم كله ! تلك

هي بعض ملامح الدور الصيني في افريقيا! ولقد اندفعت الصين الى دعم مجموعة من الضباط اليمينيين الفاشست الموالين للغرب في باكستان الغربية ، وتجاهلت آلام ((البروليتاريا)) في بنغلادش وشجعت الحرب بين شعبين آسيويين فقيرين لا شيء ، الا لان الاتحاد السوفياتي تعاون مع الهند ، ولا شيء الا لان الصين تريد تخريب التجربة الديمقراطية الهندية حتى تبقى هي النموذج الاوحد الصالح امام انظار الشعوب في كل مكان . هذا بينما يسود الصمت الجبهة الفيتنامية بعدما انتهت الصين ((صفقة)) دخولها الامم المتحدة مع اميركا! تلك هي بعض ملامح دور الصين في آسيا! وفي منطقة الخليج دخلت صراع باكر مع بريطانيا ، وهي تعلم انها لا تستطيع ان تكسب الصراع ، وان النتيجة الوحيدة لموقفها هذا ، هو اعطاء بريطانيا المجال لتمثيل دور الحامي لانظمة المنطقة ، وافادة الخزانة البريطانية المفلسة من تجارة الحرب في ظفار! ان الاتحاد السوفياتي دولة اشتراكية ثورية ، لكنه يتصرف بمسؤولية وحكمة ، وكان منتظرا من الصين ان تفعل ذلك ، غير ان سلوكها الحالي امر يدعوالى الاستغراب ، والى ما هو اكثر من الاستغراب . هذا بالاضافة الى ان الصين ليس لديها من الخبرات ما يمكنها تقديمه للعالم الثالث . واذا كانت لديها بعض الخبرة فانها تبخل بها على هذه البلدان حتى لو كانت في اشد الحاجة اليها . ولعل جميع القراء يذكرون ما ورد في مذكرات هيكل عن عبد الناصر بانه طلب من شوان لاي دعما صينيا لمشروع مصري نووي بعد حزيران ، فكان الجواب : ليس لدينا ما نقدمه وبعدها مات عبد الناصر قال شوان لاي لوفد مصري - في ما يشبه سجع الكهان الخرافي - ان روسيا هي التي قتلتها لانها تركته كسير القلب! بالنظر الى هذه

التصرفات الصينية ، لا يبدو ان البلاد العربية - ومن ضمنها دول الخليج الجديدة - يمكنها ان تستفيد من الصين . واذا كان عرب الخليج يريدون تقليص نفوذ بريطانيا الاستعماري العتيق ، فانهم لا يريدون لخليجهم - من ناحية اخرى - ان يتحول الى مسرح لهذا النوع من السلوك غير المسؤول ، على الطريقة الصينية . أما في الحقل التجاري ، فان دول المنطقة تتعامل مع الصين منذ امد طويل . وفي ما عدا ذلك ، فان البحث في اقامة علاقات بين الصين ودول الخليج غير ذي موضوع في الوقت الحاضر .

الفصل الرابع

الخليج والعرب: والآن ما العمل ؟
عهد جديد

نحن الآن في مطلع 1972 . عهد جديد في الخليج . الحماية البريطانية تنسحب رويدا ، وينسحب معها ظلها الثقيل الكئيب (أوهكذا تأمل شعوب المنطقة) . والخليج ينفتح على وطنه العربي الكبير ، وعلى العالم بأسره شرقيا وغربيا . والانفتاح خاصية أصيلة في هذه المنطقة منذ فجر التاريخ . غير ان الخليج بحكم جغرافيته ، وموقعه ، وتكوينه البشري لا يستطيع تقرير مصيره بنفسه . طبعا ، قد يقال لا توجد منطقة في عالم اليوم تستطيع ان تقرر مصيرها بنفسها في معزل عن مشاكل العالم ومصالحه وتياراته . قول صحيح! وهواكثر صحة من اي مكان في الدنيا . عرب الخليج شعوبا وحكومات ، والعرب جميعا شعوبا وحكومات ، يجب أن ينتبهوا اليوم وخليجهم على أعتاب عهده الجديد ، الى حقائق واقعهم المحلي والعربي والدولي ضمن معطيات الوضع الراهن ، بغض النظر عما اذا كانت هذه الحقائق متفقة مع رغباتنا ومشاعرنا اولا ان الامة العربية اليوم - والى امد لا ندري مداه - ستظل تواجه العدو الرئيسي . وهي حتى الآن لم تصل الى المستوى الجدي المطلوب الذي تحتمه طبيعة المواجهة . وعلى ضوء هذه الظروف فهي لا تملك ان تفتح لها جبهة خلفية في الخليج . ولا أدل على ذلك من ان العراق والكويت نبها جميع الحكومات العربية الى خطة ايران في احتلال الجزر قبل وقوعه بشهور . لكن الحكومات العربية تجاهلت ذلك عن عمد لسبب بسيط هوانها - بحكم طبيعتها وظروفها - لا تستطيع ان تفعل شيئا . ووقع الاحتلال ، ولم يستطع العرب ان يردوا عليه بالاجراء الفعال الوحيد : الا وهومجابهته بالقوة المسلحة . لقد فعل العرب كل شيء الا هذا . انفعلوا . تظاهروا . لعنوا . قطعوا العلاقات . كان اكثر الاجراءات بروزا الاجراء الليبي

بتأميم شركة النفط البريطانية . وبقي واقع الامر في الخليج كما هو ... على حاله!

معنى احتلال الجزر

والذي يجب ان ينتبه اليه العرب بشأن الاستراتيجية الايرانية ، ان احتلال الجزر في حد ذاته لا يعد شيئا اذا قيس بما قد يقع في الخليج اذا قررت ايران المضي في خطتها البعيدة الامد ، وسمحت لها الظروف الدولية بتنفيذ هذه الخطة . أما فيما يتعلق بموضوع احتلال الجزر بالذات ، فنعتقد ان ايران اقدمت على احتلالها لاسباب معنوية تتعلق باتجاهات الرأي العام الايراني اكثر من اي امر آخر . وما ذكر عن ان الجزر تتحكم اصلا في مداخل الخليج باشرافها على مضيق هرمز . وهي تملك من القوة الجوية والبحرية ما يمكنها الوصول الى اية منطقة في الخليج والاراضي العربية المحيطة به متى شاءت دونما حاجة الى احتلال هذه الجزر التي لم تعد لها أهمية استراتيجية في الوقت الحاضر مع وجود الاسلحة المتطورة ، وايران تمتلك منها الكثير جوا وبحرا . اما التبرير الآخر ، وهوان ايران تخشى وقوع الجزر تحت سيطرة نظام يساري فانه ايضا من قبيل تحميل الامر اكثر مما يحتمل . فايران تعلم ، علم اليقين ، ان الاوضاع قد تم ترتيبها في الخليج - محليا وعربيا ودوليا - بصورة تجعل من هذا التخوف الايراني امرا غير وارد . ولن يحدث ذلك الا في حالة حصول تغيير جذري على واقع القوى في المنطقة كلها . وفي تلك الحالة فان هذه الجزر الصغيرة القاحلة لن تقدم ولن تؤخر شيئا . لذلك فاننا نرجح ان

يكون الاحتلال الإيراني للجزر هو ((مسألة معنوية)) بالدرجة الأولى وبعد الاحتفالات الاسطورية بذكرى تأسيس الامبراطورية كان لا بد أن يرتفع ((العلم)) الامبراطوري في مكان ما فكان ما كان . وهوامر كانت جميع القوى ذات العلاقة بالمنطقة - العربية منها والاجنبية - تعلم به مسبقا . ولم يكن ((مفاجأة)) الا بالنسبة الى المتظاهرين العرب . والمنظمات الشعبية العربية للأسف! ان مسألة الجزر في حد ذاتها ليست هي المشكلة الاساسية ولا بد من التنبه الى ان مخاطر المستقبل تكمن في الاحتمالات الآتية :

الخطر من احتلال الجزر!

أ . ان ايران اليوم بحكم حجمها وقوتها العسكرية ومطامحها تستطيع بوسائل الضغط الدبلوماسي ، وغير الدبلوماسي ، ان تفرض سياسات معينة على دول الخليج ، خاصة ان الدول العربية ليست في وضع يمكنها من ابطال مفعول الضغوط الإيرانية ، بينما القوى الغربية تنظر الى ايران باعتبارها الدولة الاكثر تطورا في المنطقة والاكثر تفهما للمصالح الغربية والاكثر انسجاما معها وقابلية لثقتها . وباسلوب الضغط الصامت تستطيع ايران ان تحقق من المكاسب ما لم يستطع اسطولها تحقيقه في الجزر الثلاث . ان ايران بهذا الاسلوب تستطيع ان تحصل على امتيازات اقتصادية وثقافية وسياسية (ومن يدري ربما عسكرية ؟) وهي ان شاءت تستطيع أيضا ان تعرقل نموالتفتح السياسي الديموقراطي العربي لدول الخليج ، وان تحول بين هذه الدول والمساهمة بدورها المطلوب

في قضايا امتهما العربية ، وان تحد من حريتها في توثيق صلاتها بشقيقاتها العربيات . وعلى ضوء هذا الاحتمال القائم ، الا يبدوتخلي ايران عن بعض مطالبها في المنطقة تراجعا تكتيكيا وليس موقفا استراتيجيا؟ الا يصح الافتراض انها تخلت عن الجزء لتفرض نفوذها على الك؟! من ناحية اخرى ، يستطيع المهاجرون الايرانيون الموجودون في الخليج ، بنفوذهم التجاري و بدعم من ايران ان يمثلوا دور ((القبارصة الاتراك)) في حالة اتجاه الخليج اواحدى دوله نحوالاتحاد مع شبه الجزيرة الام واقامة اتحاد عربي فعلي في منطقة الخليج ذاتها ، خاصة اذا وجدت ايران ان ذلك لا يتمشى مع خططها في المنطقة . ان الوجود الايراني ، البشري والاقتصادي والثقافي في الخليج ، يجب الا يقلل من خطره . لقد تراكم هذا الوجود بصورة تدريجية مرسومة منذ اوائل القرن بعلم بريطانيا ورضاهما (بينما كان الفرد العربي يحتاج الى شهور الحصول على سمة دخول الخليج بصفة مؤقتة) واليوم يبدي الديبلوماسيون البريطانيون في الخليج دهشتهم - عندما يتحدثون الى المسؤولين العرب- عن كيفية حصول هذا ((الاحتلال الايراني العلمي المتدرج للخليج)) - على حد قولهم!

ب . اذا سمح لها العامل الدولي ، فان ايران تستطيع ان تحتاح الخليج عسكريا حتى لوقاومتها الدول العربية القريبة من المنطقة . نعني بالعامل الدولي على وجه التحديد اميركا ، و بريطانيا بدرجة اقل . هذا التبدل المجاني غير متوقع في المستقبل القريب على ضوء ((المعادلة الجديدة)) في الخليج . وغير ممكن - على وجه التحديد والتفصيل - التنبؤ بالظروف التي قد تطرأ لتخل بالتوازن

الحالي . الا انه ممكن القول ، ان حدوث تبدل أساسي في الساحة العربية عامة ، وشبه الجزيرة العربية خاصة بشكل يهدد المصالح الغربية ، من الممكن ان يكون الدافع الرئيسي للغرب كي يعطي ايران الضوء الاخضر .

هناك بالطبع عدة افتراضات نظرية من الممكن التعلل بها :

1 . ان العالم لن يسمح لدولة ما باحتلال اراضي دول مستقلة تتمتع بالعضوية في الامم المتحدة .

2 . ان الغرب لا يريد ان يضع ((بيضة)) البترول كله في ((سلة واحدة)) . بتعبير آخر : ان الغرب على ثقته بايران لن يسمح لها بالسيطرة الشاملة على نفط الخليج كله . خاصة ان شركاته تجد ((سلاسة)) منقطعة النظير في التعامل مع حكومات الجانب العربي من الخليج . ولا بد ان يضع الغرب في احتماله ايضا امكان تحول الوضع في ايران الى غير مصلحته مهما يكن هذا الاحتمال ضعيفا في الوقت الحاضر .

3 . ان الغرب لا بد ان يحسب حساب اصدقائه في العالم العربي عامة ، وشبه الجزيرة العربية خاصة ، فلا يعقل نظرا الى هذا الاعتبار ان يسمح لايران بتحويل كفة الميزان كليا الى مصلحتها .

4 . ان جميع التطورات في الدول المنتجة للبترول في المتوسط وافريقيا تجعل من منطقة الخليج المنطقة المثالية لمصالح النفط

الغربية من جميع الجوانب . الامر الذي يدفع الغرب الى
الحرص على ابقاء الوضع الراهن كما هو باي ثمن ، والحيلولة
دون وقوع ما يغير التوازن حاليا . (غير ان هذا العامل بالذات
سلاح ذو حدين . واذا حدث ما يخل بالتوازن على الجانب
العربي ، فان ايران ستتحرك بالنيابة عن الغرب لاعادة الامور
الى نصابها!

يبقى كل ذلك مجرد افتراضات في وجه ما قد تتمخض به
الاحداث والتطورات من ((مفاجآت)) ساخنة على ارض الواقع
الصلب . وقد كنا نتعلل بمثل هذه الافتراضات قبل حزيران . ثم
ضربت اسرائيل ضربتها ، وفقدت جميع الافتراضات النظرية
وجاهتها . فلا عضوية الامم المتحدة مجدية ، ولا صداقة الغرب
أوالشرق بنافعة . وما حدث في شبه القارة الهندية مؤخرا يثبت
ان الاحداث اذا تلاحقت وتآزمت لا يمكنها ان تخضع لاي منطق
من الافتراضات . لا منطق الا منطق القوة والاستعداد المسبق
والتخطيط الطويل الامد . واذا كانت ظروف العرب الراهنة لا
تمكنهم من التصدي للاخطار المحتملة التي تهدد الخليج ، فهل
يمكنهم البحث عن حليف دولي من الممكن الاعتماد عليه؟

قد يكون من المناسب في هذا المجال ان يتساءل المرء عن الموقف
السوفياتي من الخليج . بعبارة أكثر صراحة : هل سيحمينا الاتحاد
السوفياتي اذا زلزلت الارض زلزالها؟!

عودة الى الحقائق:

1. ان الاتحاد السوفياتي يدرك منذ محادثات ((غلاسبرو)) - اوقبلها اوبعدها لا فرق - ان منطقة الخليج لا تدخل ضمن ((دائرة نفوذه)) في الشرق الاوسط ، وان اصول ((لعبة الامم)) تقتضي ان يدخل المنطقة - اذا شاء - عن طريق علاقاته الرسمية مع حكومات المنطقة . وان مجال تحركه هو توثيق صداقته واقامة تبادل تجاري معها . وفي احسن الحالات تقديم الخبرة التقنية ، لذلك سارع الاتحاد السوفياتي الى الاعتراف بدول الخليج الجديدة (حيث رفضت جمهورية اليمن الشعبية فعل ذلك) ، وقد يتبادل التمثيل الدبلوماسي مع هذه الدول ويفتح سفارات . ودول الخليج ستثبت مقدرة دبلوماسية عظيمة اذا استطاعت ان تجعل علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي في مستوى متانة العلاقات بين الكرملين وعرش الطاووس في طهران!

2. ان الاتحاد السوفياتي يميل الى التسويات السلمية وتجنب اية مواجهات ساخنة مع الولايات المتحدة (خاصة بالنسبة الى الشعوب التي لا تحارب بذاتها دفاعا عن ذاتها والتي لا تكون لها خطط محددة واضحة لحماية كيانها وضمان أمنها القومي!)

3. مع وجود عامل الصداقة العربية السوفياتية (الذي تعرض لاكثر من هزة) ، فان علاقة الاتحاد السوفياتي مع ايران هي أقوى موضوعيا من جميع علاقاته مع الحكومات العربية وشبه الجزيرة . بل ان هذه العلاقات لم تنشأ بعد ، ولا تزال بعض أجهزة الاعلام الرسمية في المنطقة تهاجم ((الملحدين))

الاشتراكيين . وقد يقف الاتحاد السوفياتي مع ايران دفاعا عن استثماراته الضخمة فيها اكثر مما قد يقف مع استثمارات النفط الغربي في الخليج! اذن ننتظر من الاتحاد السوفياتي ان يحارب ضد من ومن أجل من؟!

العلاقات العربية الايرانية : وقفة مراجعة

لا بد قبل الوصول الى الخاتمة ، من وقفة مراجعة بشأن العلاقات العربية الايرانية . اذا تأملنا في طبيعة العلاقات العربية الايرانية وجدنا ان منطق التصادم ليس حتميا . فالوجدان العربي والايراني لا يتناقضان كما يتناقض الوجدان العربي والاسرائيلي . اذ ان اسرائيل كيان دخيل عنصري وتوسعي مفروض على العرب في ارضهم ، بينما ايران ، بشريا وتاريخيا ، دولة مجاورة وذات علاقات متينة بالعرب من عدة اوجه . لذلك فالتصادم الايراني - العربي ليس حتميا ، ولكنه يظل احتمالا قائما . والمسلك الايراني في النهاية هو الذي سيقدر ورود هذا الاحتمال او عدمه ، لان ايران هي التي تمتلك زمام المبادرة في الخليج . وقد لمست ايران عمق النيات العربية الحسنة عندما انتهت خلافها مع البحرين واعترفت بها . وتستطيع ايران ان تجعل من قدرتها على المبادرة عاملا ايجابيا اذا :

- 1 . كبحت حوافز التوسع العدواني لديها في منطقة الخليج ولم تتأثر بالخطط الاسرائيلية (و الغربية) لفتح جبهة خلفية للعالم العربي .
- 2 . اعتبرت الخليج منطقة مشاركة : لها الجانب الفارسي منه ، وللعرب جانبهم العربي و الطرفان ((يتعايشان سلميا)) دونما

حاجة الى رفع شعارات : ((الخليج بحيرة فارسية)) و ((ايران ستخلف بريطانيا فيه)) و((نحن أقوى قوة فيه)) الخ .

3. تركت دول الخليج الناشئة تبني حياتها بنفسها طبقا لاحتياجاتها واهدافها الوطنية دون ضغط من جانبها .

اذا تحقق ذلك فان تنمية العلاقات العربية - الايرانية لمصلحة الامتين ستكون عنصرا فعالا في حماية استقرار المنطقة وازدهارها . لقد لاحظنا في الفصل الاول ان عوامل عدة تقف في مصلحة الصداقة الايرانية العربية . ورأينا ان عامل الخليج وحده يمكن ان يكون العامل الرئيسي في تحطيم هذه الصداقة اذا شئت ايران ان تجعل من الخليج ساحة صدام . وايران ليست مضطرة لفعل ذلك وهي لم تصل الى نقطة ((الالارجوع)) بعد . ولا بد ان تنتبه قبل المضي في خططها ان العرب لا يهددونهم باي شكل من الاشكال ، ولا يمكنهم ان يمثلوا خطرا عليها في المستقبل . ومن حقها على العرب ، ان تطلب منهم شيئا واحدا هو عدم تدخلهم في نظامها الداخلي وعدم تعرضهم لاتجاهها الاجتماعي - السياسي ايا كانت الاتجاهات التي سينتجونها هم ، ومن حق العرب على ايران ان يطلبوا منها المعاملة بالمثل . ان النتائج الايجابية التي من الممكن ان تترتب على استمرار الصداقة العربية الايرانية ، غير ممكن تصور عمق آثارها البناءة في حياة الامتين بالنظر الى ضخامة امكانات التعاون في كل ميدان : ثقافيا واقتصاديا وسياسيا ودينيا . ان حضارة جديدة في الامكان ان تنشأ على اكتاف الامتين من جديد ، كما قامت الحضارة الاسلامية الجامعة بفضل المساهمات المشتركة للعرب والفرس في صدر الاسلام . غير ان كل ذلك يدخل

في باب ((النيات الطيبة)). و((النيات الطيبة)) هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن فرضه على الآخرين . لذلك فاننا كعرب نعبر عن نياتنا الطيبة ، وندعو اصدقاءنا الايرانيين الى مبادلتنا بالمثل راجين أملين ولكن لا توجد امة في العالم تقبل بأن يرتهن امر بقائها ووجودها ومصيرها بالنيات الطيبة للآخرين .

هذه بدهية لا تقبل الجدل على الاقل بالنسبة الى الامم التي تريد ان ((تبقى)) فعلا!

عودة على بدء

في التحليل النهائي ، لا بد ان تكون ثمة استراتيجية عربية عامة لمواجهة مخاطر المستقبل في الخليج . ماذا يمكن العرب ان يفعلوا بشأن الخليج لا انفعالا وغضبا وأسى بعد فوات الاوان ، ولكن كخطة جماعية مدروسة طويلة الامد تحسبا لمخاطر المستقبل؟ ذلك هو السؤال . ذلك هو التحدي الكبير .

عندما قام ((اتحاد الجمهوريات العربية)) طرحت جريدة ((الراي العام)) الكويتية فكرة اقامة اتحاد مماثل بين بلدان شبه جزيرة العرب . والواقع ان هذه الفكرة متداولة اليوم في اوساط عديدة ذات شأن في بلدان الخليج وشبه الجزيرة . يقال ان المملكة العربية السعودية ستحقق في السنوات القادمة دخلا من النفط يصل الى ضعف دخلها قبل سنتين . ان هذه الامكانيات اذا اضيفت اليها مداخل الكويت ودول الخليج الجديدة ستمثل جبهة اقتصادية

ضخمة ، من الممكن ان يقوم على اساسها اتحاد سياسي وعسكري اقليمي لا يستهان به . وان ذلك سيكون من شأنه حماية المنطقة من اية اخطار تهدد الاجزاء الصغيرة والضعيفة بالذات . ان فكرة كهذه تستدعي مبادرة المملكة العربية السعودية ، باعتبارها القوة الاكبر في المنطقة . ويصعب التنبؤ - على ضوء التكتم السعودي الدبلوماسي المعهود - ان كانت المملكة راغبة حقا في اقامة هذا النوع من الاتحاد .

ثم ان المدخل الى هذه الفكرة هو مدخل اقتصادي بحث - وذلك اساس معقول لاي اتحاد - غير ان توافر وحدة الارادة السياسية يجب ان يأتي قبل كل شيء في اي مشروع اتحادي . ونعني بالارادة السياسية ليس الارادة الرسمية فحسب ، بل ارادة الشعوب ذاتها كمنطق اساسي . من ناحية اخرى ، نجد ان المملكة السعودية تركز اليوم على الاصلاحات الادارية والتنمية الاقتصادية والمشاريع العمرانية ، ولا يبدو ان الوقت قد حان - في نظرها - لاصلاحات سياسية . بينما نرى ان دول الخليج تستشعر الحاجة الملحة الى الاصلاح السياسي - وسط جوشعبي متفتح وضغط - وقد قطعت الكويت شوطا بعيدا في تجربتها الديموقراطية وحكمها الدستوري البرلماني وتوفيرها لجواخريات العامة . وهذا ما ينتظر ان تسير فيه دول الخليج الجديدة بشكل أوبأخر ، وبدرجات متفاوتة حسب اوضاعها ومستوى نضجها السياسي .

الاتحاد الذي نريد

لذلك ، وكخطوة أولى على مستوى الخليج ، يبدو ان العمل على اقامة اتحاد بين الكويت والبحرين وقطر ودولة الامارات (ثم عمان عندما تنهي) هو السبيل العملي والواقعي نحو خلق كيان عربي قادر على حماية اجزائه ولم شملها ومجابهة اية ضغوط محتملة في هذه المنطقة . ولا بد من الاستفادة من تجربة الاتحاد التساعي الذي فشل في الخليج بعدما جرى اندفاع اضطراري وغير منظم لاقامته بسرعة لمواجهة احتمالات انسحاب بريطانيا العسكري (الذي جاء مفاجئاً بعدما مر وزير بريطاني مسؤول على ((امارات)) الخليج واكد لها ان بريطانيا لا تنوي مغادرة المنطقة وليس لديها خطط بالانسحاب !). ان الاتحاد الجديد المنشود يجب ان يسبقه اقتناع كامل ثم تخطيط ارادي واع من جانب جميع اطرافه ، وان يكون اتحاد شعوب لا اتحاد حكام . وان يكون اتحادا ديمقراطيا دستوريا تربط اجزائه الارادة الشعبية الحرة قبل الارادة الرسمية . وما لا شك فيه ان الكويت تستطيع ان تلعب دورا هاما في هذا المضمار ، وان تأخذ بزمام المبادرة . فالكويت ((مقبولة)) بلدا وتفكيرا ونظاما في الخليج كله ، وهي غير ((متهمة)) بالبحث عن نفوذ او فرض سياسات معينة ، وجميع ابناء الخليج يتذكرون الدعم الاقتصادي والثقافي والصحي الذي قدمته الكويت الى بلدانهم وقت الحاجة ، عندما كانت بريطانيا تحيطهم بأسوار العزلة والجهل ، وعندما كانت الجامعة العربية والدول العربية الاخرى تغط في سباتها العميق .

ثم ان التجربة الديمقراطية الكويتية - برغم ما يوجه اليها من انتقادات وبرغم ما فيها من نقائص - تمثل نموذجا غير ممكن تجاهله ،

بالنسبة الى الاصلاح السياسي في دول الخليج كلها ، وعلى ضوء الظروف السياسية القائمة في الخليج حاليا . في السنين الاولى من الاستقلال ، كانت الكويت - بحكم التجربة الجديدة - تبحث عن دور لها بعيد عن محيطها ، تبحث عنه في مجالات دولية وعربية بعيدة . غير ان الكويت سرعان ما اكتشفت ان دورها الطبيعي هو في الخليج . فهنا يتوافر عمق استراتيجي لرقعتها الصغيرة . وهنا تجد كثافة سكانية متجانسة معها تضيف اليها امتداد بشريا اكبر .

من ناحية اخرى ، التزمت جميع دول الخليج الجديدة ، من البحرين الى قطر الى دولة الامارات المتحدة بالعودة الى فكرة الاتحاد عندما تنهيا الظروف لذلك . وهذه الدول بعد ان تنتهي من جدة تجربة الاستقلال وتواجه منفردة اعباء وتحدياته ستدرك ان الاتحاد افضل وضمن واسلم من الانفراد . والواقع ان اتحادا كهذا سيوفر فرصا افضل لتطور عرب الخليج ، فضلا عن انه سيققل من فعالية الضغط الايراني المتوقع ، فهذا الضغط سيكون افعلى اثرا فيما لوواجهته اجزاء الخليج منفردة .

عسكريا ، سيوفر الاتحاد وضعاً افضل . لكن ذلك لن يكون كافيا - وحده - لمواجهة الاحتمال الثاني من مخاطر المستقبل ، الا وهوالاجتياح الايراني المباغت . ان المملكة العربية السعودية والجمهورية العراقية تمثلان ((العمق الاستراتيجي)) لمنطقة الخليج . والامر الذي تحتمه المصلحة العربية العليا ، هو ان يقوم تحالف عسكري بين الاتحاد الجديد والمملكة العربية السعودية والعراق . ان ذلك سيمثل الحد الادنى من الوقاية العربية اللازمة لمستقبل الخليج . غير ان التجارب العربية علمتنا - للاسف - ان

التطابق في كثير من الحالات ليس حاصلًا بين مقتضيات المصلحة العربية العليا وملابسات الواقع العربي .

ان ما عرقل قيام جبهة عربية موحدة فاعلة ضد اسرائيل التي تحتل اراضيها بالفعل وتمثل لنا خطرا داهما واقعا مشهودا ، من الممكن ان يعرقل بالمثل الجبهة العربية المنشودة لحماية الخليج من خطر متوقع . واعتقد انه لا يوجد عربي واحد يحتاج الى تذكيره بسلسلة الاسباب المعرقلة! غير ان ادراكنا لمرارة الواقع يجب الا يمنعنا من تحديد الحد الادنى والضروري لحماية وجودنا وكياننا . وهوامر يجب ان تتنبه اليه شعوب المنطقة وحكوماتها كهدف قومي اساسي ، لا مناص منه ، اذا اردنا بقاء دائما على اراضيها بارادتنا الذاتية . اما اذا فضلنا العيش تحت مظلة اجنبية - كما هو حالنا اليوم - فيجب ان نتوقع مصير من يعيشون على الهامش بارادة غيرهم .

ما يطلبه خليج العرب من العرب!

وعليه ، فان ما ينتظره الخليج من العرب - اذا ارادوا ان يبقى عربيا يساندهم في السراء والضراء - ليس فقط ارسال وفود التهئة للابتهاج بالتقاليد والعادات الخليجية المعهودة والمشهودة (والمنشودة) في المناسبات الاحتفالية ، انما المطلوب ، والضروري ، بمعيار المصلحة القومية والوجود القومي ، هو التالي :

أولاً: ان تبذل جميع الدول العربية مساعيها وجهودها الى اقصى حد من اجل دفع دول الخليج الى اقامة الاتحاد المقترح ، بحيث يتوافر للعرب كيانات اتحادي فعال في المنطقة يضمن عدم تعرض اجزاء الخليج الى ضغط خارجي يحولها بالتدريج عن

طبيعة وجودها العربي ، وان تكف عن ادخال سياسة المحاور العربية الى المنطقة حتى لا تتحول اجزاء الخليج الصغيرة الى انهاك بعضها على طريقة الصراع العربي المعهود .

ثانياً: ان تشجع الدول العربية بلدان الخليج على بناء ذاتها وطنيا ، وذلك بدعم اتجاهات الاصلاح السياسي الديمقراطي في الدول الناشئة . فهذا هو الطريق الوحيد نحوخلق الوحدة الوطنية بين الشعوب والانظمة ، وسد الثغرات في وجه محاولات التمزيق ، من اجل ان يحصل التطابق ، قدر ما امكن ، بين ((النظام)) و((الوطن)) في جوبوفر الحيز والحرية لا كبر قدر ممكن من المواطنين ، بحيث يشعر المواطن انه يملك شيئا جديرا بأن يتمسك به ويدافع عنه .

ثالثا: ان يتوافر اجماع بصفة عامة ، واتفاق سعودي - عراقي بصفة خاصة على ضرورة خلق الجدار العسكري الواقى للخليج ، لا لحماية الخليج فحسب ، بل لحماية المصالح العراقية والمصالح السعودية التي سيكون تعرضها للخطر محتما في حالة حدوث اجتياح ايراني للخليج ، واستمرار الضغط الايراني على اجزائه . ان شعب الخليج العربي ينتظر هذا الدور من اشقائه العرب ، وهويدرك - بمرارة - ان فاقد الشيء لا يعطيه . وان العرب لم يستطيعوا تحقيق هذه المطالب الحيوية - كحد ادنى - لانفسهم ، وهم في ميدان المعركة مع اسرائيل .

ولكن - مرة اخرى - يجب الا تمنعنا مرارة الواقع من ان نضع نصب اعيننا متطلبات الواجب القومي ، حتى تستطيع شعوبنا قياس الاعمال بمعيار هذا الواجب - الذي لا مناص منه - من اجل البقاء .

لا بد مما ليس منه بد!

لدينا اليوم في منطقة الخليج بمعناه الجغرافي المحدود الكيانات الآتية : دولة الكويت ، دولة البحرين ، دولة قطر ، دولة الامارات العربية المتحدة المكونة من سبعة أجزاء ، سلطنة عمان . ولدينا في منطقة الخليج بمعناه الاستراتيجي الاوسع الكيانات الآتية : المملكة العربية السعودية ، الجمهورية العراقية ، الجمهورية العربية اليمنية ، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . التراكم العددي لهذه الدول يصل الى تسع . تقابلها على الجانب الآخر دولة واحدة يزيد تعداد سكانها على الدول العربية التسع مجتمعة (ومن هذه ((الدول)) ما ليس لها احصائية رسمية لسكانها حتى يومنا هذا) . ان العرب مئة مليون ، لكن منطق السیادات والکیانات یبعثر الملايين المئة الى عشرات وآحاد واصفار .

قال الشاعر الاندلسي عشية غروب العرب في الاندلس : ((وما يزهديني في ارض أندلس)). ولسنا بحاجة الى اكمال البيتين . فغرب الخليج ، وغرب الجزيرة ، وغرب الدنيا يعيشون معناهما المؤلم حين يصبحون ، وحين يمسون ، حين يبكون غصة قاتلة وحين يضحكون مرارة ساخرة . ويأتي وضع الخليج ، ليضيف دليلا آخر على صحة وحتمية الدعوة لاقامة دولة ((الوحدة العربية)) كضمانة ضرورية لابد منها لحماية الوجود العربي ذاته كليا وجزئيا قوميا وقطريا ففي التحليل النهائي ، وفيما يتعدى الحلول المرحلية التي اقترحناها لمواجهة الوضع الراهن ، لن يأمن عربي على استمرار وجود فلسطين والخليج ، في مصر وسوريا والارد ، في كل قطر عربي ، الا اذا استطاع العرب ان يؤسسوا لهم اتحادا شاملا وفعالا في مستوى التحديات

وعلى مستوى العصر . ولا بد مما ليس منه بد . التحدي الاسرائيلي لم يولد - حتى الآن - استجابة عربية قادرة . هل سيولد التحدي الايراني فعلا عربيا في مستوى الرد عليه؟ هل سينظر عرب الخليج والجزيرة الى ما هو ابعد من حدود التجزئة الضيق ، وما هو خير وابقى من مباحج الحياة البترولية الرخية الهينة ، ليفكروا في الاعداد لغدهم المشترك ومصيرهم الواحد؟

قال الشاعر الاندلسي ايضا وأيضا :

فلا تغرنك من دنياك نومتها

فما صناعة عينها سوى السهر

وقديما قالت الاميرة العربية الام للامير العربي الابن الذي سلم غرناطة للغزاة :

((أبك كائنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال!)) .

وغرناطة - على اي حال - ليست آخر مدينة عربية استسلمت للغزاة!

